واثق غازي

الدين واحتكار الحقيقة

آراء في نقد التفكير والسلوك الديني



Arab Diffustion Company

الدين واحتكار الحقيقة

آراء في نقد التفكير والسلوك الديني

واثق غازي



ص.ب: 113/5752
E-mail: arabdiffusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت - لبنان
هاتف: 961-1-659148 فاكس: 961-1-659150

ISBN 978-9953-529-13-4

الطبعة الأولى 2009

المحتويات

الإهداء

إلى الذين يتساءلون عن معنى الحقيقة، ويبذلون الجهد للمس أهدابها.. إلى الذين يعتقدون أن الحقيقة لا تُحتكر، وأنها ملكٌ للجميع.. إلى الذين يرون في تعدد الأديان حكمة وعدالة، وأن ليس هناك دين يحتكر الحقيقة.. إلى الذين يحترمون كل الأديان ويريدون أن تحترمهم كل الأديان.. إلى الذين يعتقدون أن فكرة احتكار الحقيقة هي رأس كل عنف وتعصب وخطيئة.

إلى جميع هؤلاء أهدي هذا الكتاب



تساؤل

الفكر لا يمكن مصادرته والعقيدة يستحيل سجنها والعنف يولد العنف، أفلا نرحم أنفسنا حتى نستحق رحمة الله وحتى يكون غيرنا أرحم بنا؟

(طه حسين، عام 1973)



المقدمة

احتكار الحقيقة:

لعل أحداث الواقع المريرة التي ترمي بثقلها على شعوب العالم بأسره، وما يحدث بين العالمين الشرقي والغربي من شد وجذب يوصف من قبل البعض بأنه صراع ومن قبل البعض الآخر بأنه حوار، هو الذي دفعنا إلى الكتابة في هذا الموضوع، فليس من السهل أن نعيش في عالم يدّعي الكل فيه أنهم يحتكرون الحقيقة وأن الآخرين لا يملكون سوى الضلال، وأن الجنة ملك لهم والجحيم ملك للآخرين.

إن موضوع الكتاب باختصار هو نقد فكرة احتكار الدين للحقيقة، وهي الفكرة التي يروج لها عدد من رجال الدين وعدد ممن اتبعهم من المتدينين، فضلاً عن عدد من رجالات الدين السياسي سواء كان يهودياً أو مسيحياً أو إسلامياً أو غير ذلك. ولعل مناقشة هذا الموضوع عمل خطير وصعب في نفس الوقت لأنه يتصل بتصورات الناس الموروثة عن الدين والتي يصعب تغييرها أو تبديلها، فهي مما رسخ في النفوس وتعودت عليه الشعوب. فالدين في مختلف المجتمعات لا يمثل عادةً فكر وعقيدة بل غالباً ما يمثل عادات وطقوس، بمعنى أنه لا يرتبط دائماً بالعقل والمنطق بل بالعاطفة والشعور وهذا يدفع الناس إلى رفض كل ما من شأنه زعزعة الثقة بهذه العادات والطقوس.

والمشكلة الكبيرة في فكرة احتكار الدين للحقيقة هي أنها تقود

إلى عدد آخر من الاحتكارات منها احتكار الأخلاق والفضيلة والحكمة، والتي يدّعي عدد من رجال الدين أن مصدرها الديني وحده، في حين يرى المخالفون لهم أنها نتاج مجهود إنساني طويل سعى لتحقيقه الجنس البشري منذ أن وجد على هذه الأرض، بمعنى أنها ليست نتاج الدين أو بالأحرى الفكر الديني وحده، بل هي نتاج الفلسفات والآداب والفنون والعلوم أيضاً. ونرى أن هذا الاحتكار للأخلاق والفضيلة والحكمة يترتب عليه الكثير من المشاكل النفسية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تعيق النمو السليم للإنسان والمجتمع.

هذا الكتاب:

لقد ظهر الكثير من الكتب التي أشارت إلى موضوع احتكار الدين للحقيقة أو اقتربت منه، ولكنها عادة ما اتصفت بأسلوبٍ يرى البعض وخصوصاً الشباب، أنه أسلوب صعب ومعقد لا سيما إذا ترافق مع مصطلحات تخصصية دقيقة، وهي الشكوى التي اسمعها من الشباب الجامعي كلما دار الحديث حول هذا النوع من الكُتب. هذا الأمر دعاني إلى الكتابة في هذا الموضوع المهم بأسلوبٍ تعمدتُ فيه السهولة والتبسيط والاختصار ولكن دون إغفال الدقة الأكاديمية الواجب توفرها في مثل هذا الموضوع. والتبسيط الذي ادعيه في هذا الكتاب قد يتجلى بأربع نقاط هي:

1 ـ كتابة المواضيع بشكل مقالات مختصرة ومكثفة، كل مقالة مقسمة إلى عدد من العناوين الفرعية التي تعين القارئ على استيعاب الفكرة وتركيز المعنى. كما ارتأيت ترتيب هذه المقالات في خمسة أقسام لضمان وحدة الموضوع، هذه الأقسام اهتمت بالمواضيع الآتية: أولاً، بيان معنى الدين والتدين وارتباطهما

بفكرة المقدس. ثانياً، الدين والعنف وكيفية استغلال اسم الله في استباحة قتل الإنسان بحجة الحروب المقدسة. ثالثاً، رجال الدين والمتدينين ونقد بعض ممارساتهم وطرائق تفكيرهم المستندة إلى احتكار الحقيقة. رابعاً، رجال الدين والمرأة التي تهدر حقوقها وكرامتها باسم احتكار الدين للأخلاق والفضيلة. وخامساً، التجديد الديني والمفكرون المعاصرون من خارج المؤسسة الدينية وعملهم الدؤوب في تأسيس مفاهيم وقواعد الإسلام الجديد والعقبات التي تقف في طريقهم.

2 ـ استخدام لغة بسيطة يسهل فهمها مع محاولة بيان معاني الكلمات التخصصية التي نرى من الواجب الترويج لها لتصبح جزءاً من ثقافة الشباب، أي أن التبسيط الذي حاولنا القيام به يتمثل بجانب كبير منه بمحاولة تشجيع الشباب على الخوض في غمار المواضيع التخصصية وليس التنفير منها أو استهجانها.

3 ـ الاستعانة بكل ما من شأنه إيصال الفكرة إلى القارئ الشاب حتى ولو كان قصيدة أو فيلماً سينمائياً أو رواية، أي أننا لم نقتصر على المصادر التخصصية فقط. هذا فضلاً عن محاولة لمس الوجدان الإنساني الذي نرى أنه الأهم في تقبل الآخر، وهذا ما دعانا للحديث عن تولستوي وغاندي وسلامة موسى.

4 ـ عرض مبسط لمفاهيم عدد من الكتاب البارزين الذين نرى ضرورة تعرف الشباب على أفكارهم وآرائهم، ليكون هذا العرض البوابة التي يطل عليها الشباب إلى عالم فهم الآخر وتقبله حتى ولو كان مختلفاً معنا، وبالتالي التأسيس لفكرة عدم جواز احتكار الحقيقة. وهذا ما حاولنا عمله في القسم الخامس والأخير من هذا الكتاب والذي تضمن عرضاً لأفكار وآراء نصر حامد أبو زيد، وعبدالكريم سروش، ومحمد سعيد العشماوي،

وعلي الوردي، وسيد محمود القمني، كنماذج فكرية سعت إلى نبذ فكرة احتكار الدين للحقيقة.

باختصار، يمكن القول إن الكتاب اهتم بالقارئ الشاب أكثر من غيره قدر الإمكان دون إغفال بقية القراء بمختلف مستوياتهم الثقافية والمعرفية، كما أنه لم يكتف بالحديث عن فكرة احتكار الدين للحقيقة فقط، بل تعداها إلى عدد من المواضيع الأخرى المتعلقة بها لذلك جاء العونان الثانوي للكتاب حاملاً عبارة (آراء في نقد التفكير والسلوك الديني).

ملاحظة وتنويه:

قد يلاحظ القارئ على هذا الكتاب، أنه على الرغم من كونه كتاباً في الدين والتدين، إلا أنه يخلو من ذكر أي نص ديني، سواء كان نصاً من كتابٍ سماوي (توراة أو انجيل أو قرآن) أو نصاً من حديث أو تراث. وذلك يعود إلى سببين هما: الأول، إيماننا المطلق بأن النصوص لا يمكن لها أن تدعم رأياً أو تنفيه، فكل واحد منا يفهم النص ويوظفه بطريقة تختلف عن الآخر. والثاني، أننا أردنا أن نترك للقارئ مهمة مقارنة الأفكار الواردة بالنصوص التي يحفظها إذا شاء هو ذلك، ليكون مساهماً معنا في تأليف الكتاب بدلاً من أن يكون قارئاً فقط، وهذا يساعده على استيعاب الفكرة المطروحة والتوسع بها وتأملها، وبالتالي الحكم عليها أما بالقبول أو الرفض أو الحياد.

ولعل من الواجب التنويه في نهاية هذه المقدمة إلى موضعين هما: أولاً، أنه لا يوجد دين يحتكر الحقيقة، ولا يوجد دين ادّعى أو يدّعي احتكار الحقيقة، ولكن بالتأكيد يوجد رجال دين يفعلون ذلك، لأجل هذا قد يرى البعض أن من المناسب أن يكون عنوان الكتاب (رجال الدين واحتكار الحقيقة) بدلاً من (الدين واحتكار الحقيقة)، وهذا رأي صحيح لكننا أردنا أن نضع عنواناً ينسجم مع نظرة رجال

الدين للحقيقة، فرجل الدين لا يرى في نفسه محتكراً للحقيقة بل ممثلاً وخادماً وحافظاً لها وإنها ـ أي الحقيقة ـ هي الدين نفسه. ومن الجدير بالذكر أن أي نقد إلى رجال الدين والذي قد يجده القارئ في هذا الكتاب هو نقد موجه فقط إلى رجال الدين المحتكرين للحقيقة، أما أولئك الذين يعتقدون بإمكانية وجودها لدى الآخر المخالف فلهم منا كل الاحترام والتقدير. ثانياً، إن كل ما ورد في هذا الكتاب هو مجرد أفكار وآراء نعتقد بأنها صائبة، والتي من الممكن أن يعتقد الآخرون بأنها خاطئة وربما مجافية للحق أو العدل، وربما يذهب البعض إلى أبعد من ذلك فيصفها بأنها كافرة أو ملحدة معاذ الله. لذلك أجد من الواجب القول إنها مجرد أفكار وآراء أعتقد بأنها صائبة وأنها قد تساهم في تحسين أوضاع الإنسان وترقية معيشته، وأن من حق الجميع أن يروا فيها خلاف ذلك.



القسم الأول
في الدين والتدين



في معنى الدين والتدين

الفرق بين الدين والتدين:

في العديد من الدراسات المتوفرة عن موضوع الدين والتدين، يوجد خلط وعدم تفريق بين الكلمتين، لذلك من المناسب التنويه إلى الفرق بينهما، لأن تحديد معاني الكلمات هو أول الخطوات في مسيرة التفاهم الإنساني. وأهم فرق بين الدين والتدين هو أن الدين حاجة عقلية فكرية فلسفية أما التدين فهو حاجة نفسية اجتماعية.

الدين هو مجموعة الأفكار والقيم والمعتقدات التي يؤمن بها الدينيون، أما التدين فهو مجموعة الطقوس والممارسات والعبادات والشعائر والمظاهر المتعلقة بالدين والتي يتمسك بها المتدينون. والديانات مهما تعددت فإن جوهرها واحد، لذلك فإن الدينيين متشابهون، أما المتدينون فهم مختلفون، وذلك لأن الممارسات الدينية مختلفة من دين إلى آخر.

وبهذا يتضح أن هناك ديناً وتديناً، وهناك أيضاً دينيين ومتدينين. الدينيون مؤمنون بعقيدة ما هي جوهر تعاليم الدين الذي ينتمون إليه. أما المتدينون فهم ممارسون لطقوس هذا والدين ومتمسكون بمظاهره. وعلينا أن نعترف بأن المتدينين في كل عصرٍ هم أكثر من الدينيين، وذلك لأن ممارسة طقوس وعبادات أي دين هي أسهل بكثير من الإيمان بأفكار ومعتقدات هذا الدين.

لعل من المناسب القول إنه من واجبنا قبل أن نكون متدينين أن نكوُن دينيين، بمعنى قبل أن نبحث عن الممارسة والعمل نقوم بالبحث عن العقيدة والفكر، فعمل دون عقيدة واضحة هو تخبط وضياع. فقد نجد في الدين الواحد اتجاهات فكرية عديدة فأيها نختار؟ أرى أن من الضروري أن نختار دائماً ما يسمو بعقولنا وأرواحنا ويوجهنا للمحبة والسلام والخير ونبذ العنف والعصبية والتعصب.

الدين والأسئلة الجوهرية:

إن دراسة أي دين، إسلامي أو مسيحي أو يهودي أو بوذي أو زرادشتي أو هندوسي.. ألخ، هي أحد سبل الإجابة عن الأسئلة الجوهرية التي يسألها كل إنسان والمتعلقة بأصل الوجود وسببه وغايته، وهي: من أوجدني؟ ولماذا أنا موجود؟ وماذا بعد موتي؟ هذه الأسئلة يسألها كل فرد لنفسه، ولعله يقضي فترة طويلة من حياته، وأحياناً كل حياته، وهو يسألها ويحاول أن يجد الإجابة عنها.

والكثير من المذاهب الفلسفية والفكرية اهتمت بإيجاد الإجابة عن هذه الأسئلة، فالوجودية والماركسية بحثت في هذه المواضيع، وقدمت إجابات عنها، آمن بها معتنقوها وجعلوها دينهم الذي يؤمنون به، لأنه لا يمكن لإنسان أن يحيا بدون دين، ولا يمكن له أن يحيا بسعادة دون أن يجيب عن تساؤلات الوجود هذه، وهو إذا لم يجدها في الديانات التقليدية بحث عنها في المذاهب الفلسفية والفكرية. لذلك قيل إن إنساناً بلا دين هو إنسان بلا شرف، ومعنى الشرف هنا هو شرف العقيدة والفكر والهدف في هذه الحياة. إن الدين هو مجموعة الإجابات التي نحملها في أذهاننا عن أسئلة الوجود وسببه وغايته، وليس من الضروري أن يكون مصدر هذه الإجابات هو دين الأبوين. إذا كانت الإجابات التي نحملها في أذهاننا عن هذه الأسئلة تدفعنا إلى

السمو فهي إذن إجابات سامية، أما إذا كانت تدفعنا إلى الانحطاط فهي إذن إجابات منحطة. ولعلي لا أغالي إذا قلت إن الإنسان يسمو بسمو عقيدته وينحط بانحطاطها.

الدين حاجة نفسية:

والدين من الحاجات الضرورية للإنسان، فلا يخلو مجتمع قديم أو حديث من دين يؤمن به، حتى الملحدين اختاروا عقيدة الإلحاد ديناً لهم، لذلك يرى علماء النفس أن الدين والتدين من الحاجات الأساسية للإنسان. فالدين في نظرهم حاجة غريزية يسمونها الغريزة الدينية (religious instinct)، مثلها مثل بقية الغرائز، كغريزة حب البقاء وغريزة تحقيق الذات وغريزة التسلط وغيرها. وقيل إن الغريزة الدينية هذه هي الحد الفاصل بين مستوى الوجود الإنساني ومستوى الوجود الحيواني، أي أن الغريزة الدينية هي التي تفرق بين الإنسان والحيوان. وهم، أي علماء النفس، يرون أن هذه الغريزة قابلة للتطوير والنمو وأنها كلما أصبحت أكثر قوة دفعت بالإنسان إلى الرقي والسمو. والغريزة الدينية هذه إما أن تعبر عن نفسها تعبيراً دينياً صريحاً من خلال ممارسة الطقوس والعبادات المتعلقة بدينٍ ما، أو أنها تعبر عن نفسها تعبيراً فلسفياً من خلال الاهتمام بقضايا الوجود والإنسان.

ونحن بحاجة إلى الدين والتدين معاً، بالمعنى الواسع للدين، فالدين يسمو بعقولنا والتدين يسمو بسلوكنا. وهذا يعني أن على الدين أن لا ينفصل عن التدين، لأن السلوك هو نتاج التفكير. وهذا الكلام صحيح من الناحية النظرية، أما من الناحية العملية فالأمر مختلف، فعلى سبيل المثال، يحدثنا الكثيرون باسم الدين عن القيم والأخلاق والمحبة والسلام، ولكننا نراهم يؤججون الفتن ويشعلون الحروب.

وهذه هي القضية الخطيرة التي أرجو من الجميع، خصوصاً الشباب، أن ينتبهوا إليها ويجعلونها المقياس الأهم في اختيار دينهم وتدينهم. إذا كانت هناك جماعة أو طائفة أو فئة تتحدث باسم الدين وتحرّض أتباعها على كراهية الناس فعلينا جميعاً أن نضع حولها مئة علامة استفهام. إن المقياس الذي نقيس به صفات أو مميزات أي دين في العالم ينبغي أن ينطلق من مقدار ما يحققه هذا الدين من نفع للفرد والمجموع. والسؤال الذي علينا دائماً أن نسأله: هل هذا الدين يبني مجتمعاً ناجحاً يتوجه أفراده إلى البر والخير والمحبة أم مجتمعاً منهاراً يتوجه أفراده إلى الأنانية والشر والكراهية؟

الشك أولى الخطوات:

طرح التساؤلات والبحث عن الإجابات هو الذي يميز الإنسان عن غيره من المخلوقات. وأهم الأسئلة التي يطرحها الإنسان هي أكثرها صعوبة. من أوجدني؟ ولماذا أنا موجود؟ وكيف عليّ أن أعيش؟ هذه هي أسئلة الوجود الصعبة التي إذا جمعنا الإجابات عنها في منظومة معرفية واحدة نشأ لدينا الدين كما ذكرنا. فليس الدين أن تؤمن بعقيدة أبويك، بل أن تشك في كل قضية حتى تثبت صحتها أو خطأها. فالدين هو الإيمان والاعتقاد، وهما لا يتأتيان للفرد إلا بعد رحلة مضنية ينتقل فيها من التساؤل والشك والبحث والترجيح إلى الإيمان والاعتقاد، ولربما لن يصل أبداً، ولكنه إذا وصل فإن إيمانه سوف يكون عميقاً وراسخاً.

باختصار، إن من لا يشك لا يؤمن، ومن يشك قد يصل إلى الإيمان. ولكن، ماذا نقول عن أولئك الذين لم يعرفوا الشك يوماً واحداً، وإذا راودهم في لحظة ما استغفروا الله وتابوا إليه؟ هل هم ليسوا بمؤمنين؟ في رأيي أنهم متدينون مخلصون وليسوا مؤمنين.

إذا كانت أولى الخطوات في معرفة الدين هي الشك يتلوها خطوات كثيرة كما ذكرنا، فهل نعتقد بأن الوصول سوف يكون إلى نفس النتيجة الحتمية؟ بالطبع لا. . وهذا ما يدعونا إلى القول بإمكانية وجود أكثر من دين يحمل في طياته الحقيقة ولا يحتكرها، أو بعبارة أدق يقترب من الحقيقة ويمس بعضاً منها ولا يمتلكها كاملة. وهذا لا يمنع بالطبع بأن يدعي المرء امتلاك الحقيقة، فالشعور بذلك هو سبب الاطمئنان النفسي الذي يشعر به المتدينون.

الدين هو كل محاولة يبذلها الفرد لمعرفة هدف الحياة وكيفية العيش. وان من لا يكتفون بالإجابات الجاهزة التي يقدمها لهم آباؤهم أو رجال الدين في عصرهم عن أسئلة الوجود الأزلي هم فقط السائرون في دروب الدين أما من يرضون بهذه الإجابات فهم المتدينون. والحق يقتضي منا أن نقول إن المتدينين أكثر راحة من الباحثين عن الدين والإيمان ولكنهم أقل إنسانية، فالإنسان يولد إنساناً بيولوجياً لكنه لا يصبح إنساناً حقيقياً إلا بعد أن يستشعر هدف الحياة ويتعلم بنفسه كيفية العيش.

دين البطاقة الشخصية:

أنا وأنت لم نختر ديننا بل هذا ما وجدنا عليه آباءنا، فليس منا من اطلع على جميع الديانات في هذا العالم، ودرسها بعناية، ومن ثم اختار منها دينه الذي يدين به. إذن، لماذا أدعي أني احتكر الحقيقة؟ ولماذا تدعي أنت أنك تحتكر الحقيقة؟ الحقيقة لا احتكرها أنا ولا تحتكرها أنت. الحقيقة لا يحتكرها أحد، ولكن يمكن أن يدعي امتلاكها من يبحث عنها.

أخرجنا الله من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئاً، ولكن آباءنا اختاروا لنا ديننا، أو بالأحرى دينهم هم، فالطفل لا يعلم شيئاً. إذا كان أبواه مسلمين كُتب في بطاقته الشخصية (مسلم)، أما إذا كانا مسيحيين كُتب

(مسيحي) وهكذا في بقية الديانات. ولعلي لا أغالي إذا قلت إنه ليس من الصحيح أن يُكتب دين أي فرد في بطاقته الشخصية، لأن الدين في نظرنا هو اختيار شخصي نحصل عليه بالدراسة والبحث والتأمل وبعد مجهود قد يطول أو يقصر، وهذا هو دين الإيمان والاعتقاد، وهو دين الأقلية، أما دين البطاقة الشخصية فهو دين العرف والتقليد والإتباع، وهو دين الغالبية.

إذا كان ديني هو دين البطاقة الشخصية، فهل يحق لي أن ادعي أنه الدين الحق، وأنا لم أدرسه ولم أتأمله ولم أختره أصلاً؟ وهل يحق لغيري أن يفعل ذلك أيضاً؟ لذلك كان من واجب كل شاب أن يقرأ الكتب الدينية، خصوصاً التوراة والإنجيل والقرآن، لأن هذه الكتب ساهمت في تشكيل عقائد الكثير من الناس وأسست للعديد من الأفكار والعادات والأعراف، إي أنها ساهمت في تشكيل الضمير البشري. على المسلم أن يدرس التوراة والإنجيل، وعلى المسيحي أو اليهودي أن يدرس القرآن، ولكن هناك من يخاف البحث عن الحقيقة لأنها قد تسبب له المشاكل، وهو لذلك لا يقرأ أي كتاب خارج كتب دينه وأحياناً كتب مذهبه أو طائفته. فالكثير من المسلمين لا يقرأون الإنجيل وكثير من المسيحيين لا يقرأون القرآن. وهناك الكثير من الشيعة لا يقرأون كتب السنة، والكثير من السنة لا يقرأون كتب الشيعة. وهؤلاء الذين لا يقرأون يخافون من معرفة الحقيقة. إنهم يستريحون بما عندهم من عقائد ورثوها عن آبائهم. والذين لا يبحثون عن الحقيقة، لا نملك إلا الرثاء لهم، والتحذير من إتباعهم.

لا تستريح لدين أبويك دون بحث ودراسة وتدقيق، وإذا وجدت ذلك صعباً فلا تدّعي امتلاك الحقيقة ولا تسخر من الآخرين المخالفين لكَ في الدين، فعسى أن يكونوا خيراً منك. أما إذا درست وتأملت وآمنت بدينٍ ما، أياً كان هذا الدين، فمن الواجب أن لا تحتقر دين

الآخرين، ولعل من حقك في هذه الحالة أن تدعي امتلاك الحقيقة ولكن ليس من حقك أن تدعي احتكارها.

بالمناسبة، ما هي فائدة كتابة ديانة أي فرد في بطاقته الشخصية؟ سألت نفسي هذا السؤال ولم أجد له إجابة، ولعل الكثيرين غيري يسألونه ولم يجدوا له إجابة. فبطاقتي الشخصية هي عقد مواطنة بيني وبين حكومة بلدي، تضمن لي حقوقي وتفرض علي واجباتي، فهل هذا العقد بحاجة إلى ذكر ديانتي؟ هل تفرق الحكومة في معاملتها بين مسلم ومسيحي مثلاً، فلجأت إلى حيلة ذكر الديانة في البطاقة الشخصية؟ يبدو أن الإجابة نعم وإلا ما كانت لتصر على مثل هذا الإجراء، أما إذا كانت الإجابة بلا، فما فائدة كتابة ديانتي في بطاقتي الشخصية؟

الدين الواحد:

أجدني منساقاً للقول إن ليس هناك دين يحتكر الحقيقة لأنه لا يوجد دين قادر على أن يحمل للناس كل الإجابات عن معنى الحياة وهدفها وكيفية عيشها. ولعل السبب في ذلك لا يعود إلى طبيعة الدين نفسه بل إلى طبيعة فهمنا للدين. فكل نص ديني يخضع لتفسيراتنا نحن البشر. ولأننا مختلفون اختلفت دياناتنا، ولأننا نريد أن ندعي لأنفسنا الحقيقة أدعينا كذباً أن الدين الذي ننتمي إليه يحتكر الحقيقة وبذلك تعددت الأديان. ورأيي هو أن ليس هناك في الوجود كله إلا دين واحد، أما ما نعرفه من أديان فهي ليست سوى انعكاسات لاختلافات أفهامنا وتصوراتنا عن هذا الدين الواحد.

ما هو هذا الدين الواحد؟ ليست هناك كلمة واحدة جامعة لهذا الدين، وليس هناك تعليم أو طقس واحد عليك أن تمارسه لتصبح من أتباعه، وليست هناك صلاة واحدة له، إنه كل الديانات مع بعضها.

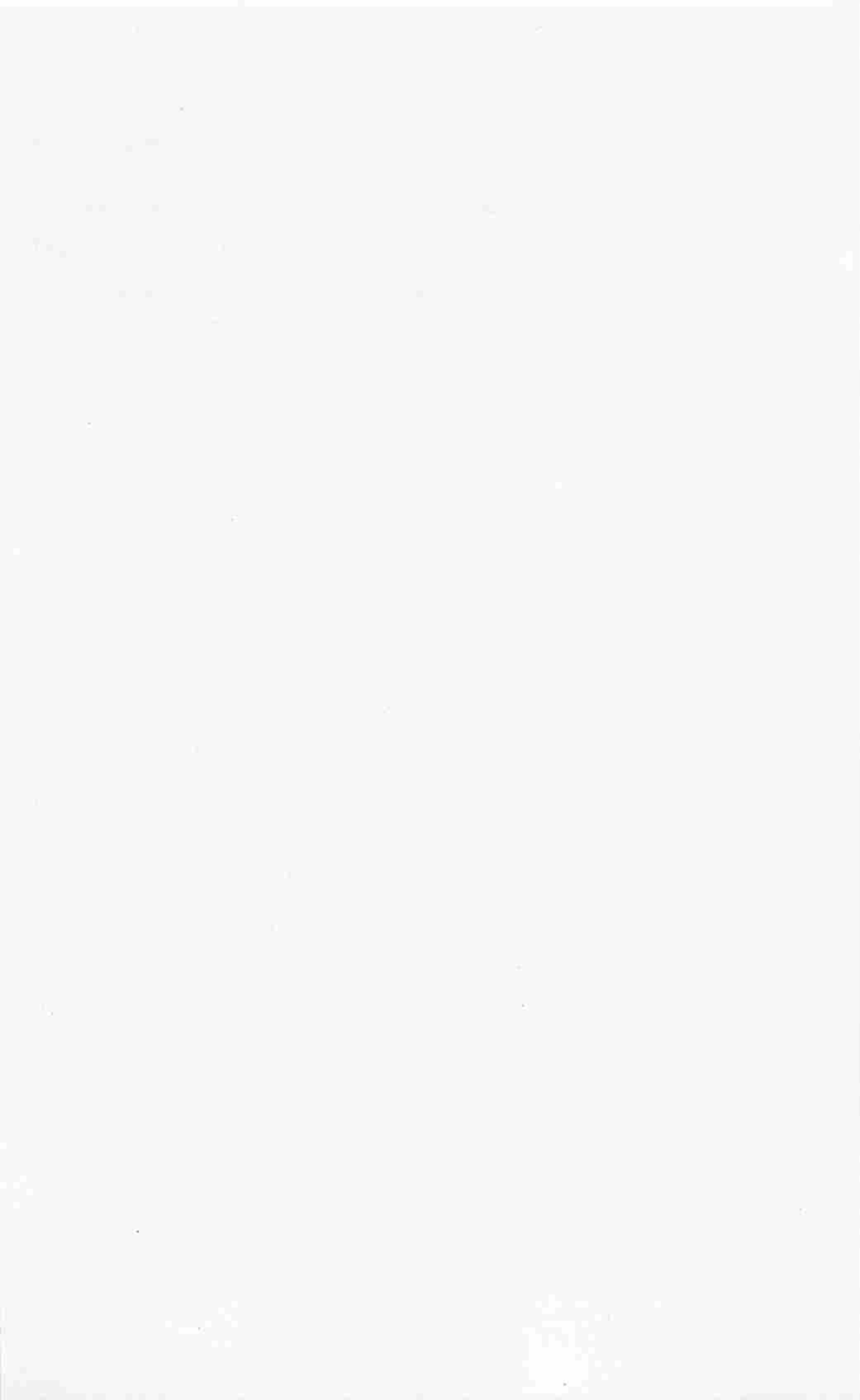
وإذا أردت أن نطلق عليه اسماً فهو دين التعددية. نعم التعددية في الأديان هي عصارة الدين. ومقولة أن ليس هناك دين يحتكر الحقيقة هي الدين. إدراكنا بان كل الديانات على خير هو الدين. وهذا الدين لا يُلزمك بان تتعلم كل الديانات أو تمارس كل العبادات فيها، إنه لا يمانع في أن تكتفي بدين أبويك، ولكنه في نفس الوقت يريد منك أن تحترم كل الديانات وتؤمن بأحقية وصدق كل الديانات، أما إذا كان دين أبويك يحتكر لنفسه الحقيقة فهو ليس من الدين. عليك أن تعترف بكل الديانات وتُطالب بأن تعترف بك كُل الديانات. هذه هي أهم وأول مقولة في دين التعددية.

أما المقولة الثانية فهي أن أعلى قيمة في الوجود هي الإنسان، وأي دين يتعرض للإنسان بسوء أو أذى فهو ليس ديناً على الإطلاق، بل هو أفكار أناس بيولوجيين لم يدركوا الإنسانية الحقيقية بعد. إن من يرون في أنفسهم أصحاب دين ويعتدون على الإنسان وكرامته وحريته هم ليسوا أصحاب دين بل هم مجرمون عقائديون. أما الإيمان بتعدد الأديان وقدسية الإنسان فهو الدين الذي يجمع كل الديانات.

الخلاصة:

علينا جميعاً أن نبحث عن الدين الذي ندين به، ولنتذكر دائماً أن دين آبائنا ليس بالضرورة هو الدين الصحيح، وعلينا أيضاً أن نعلم أنه ليس من حق أي دين أن يدعي احتكار الحقيقة ولكن من حقه أن يدعي امتلاك الحقيقة. بهذه الأفكار نستطيع أن نكون دينيين وليس متدينين فحسب. فسعادة الإنسان وقوته وإرادته وأهدافه تعتمد على دينه وليس على تدينه. فالدين هو الجوهر أما التدين فهو المظهر. والدين هو اختيار محض، يعتنقه الإنسان بإرادته واقتناعه، لذلك لا يجوز فيه التقليد والإتباع، أما التدين فهو مفروض، لذلك يجوز، وأحياناً يجب

فيه التقليد والإتباع، والتدين هو مرحلة لاحقة للدين، فالبداية هي الإيمان والاعتقاد ومن ثم الولاء والطاعة، وكلاهما الدين والتدين مطلوبان ومهمان، ولكن ديناً بلا تدين عصيان، وتدين بلا دين غباء.



نقد فكرة المقدس

المقدسات الخمسة:

كلمة مقدس ترتبط بالله أو بالدين، أي بالسماء، حتى قيل إن الدين هو عبارة عن (منظومة من الرموز المقدسة)، ولذلك نجد أن المقدس شديد الخصوصية وفوق النقد، وفكرة المقدس توحي لسامعها بالتنزيه والتعظيم والهيبة والخشية، والمقدس لا يشوبه عيب أو نقص أو خلل أو زلل، هو معبر في أحيان كثيرة عن الكمال. ولأجل ذلك نجد أن الفكر الديني يقسم الأشياء إلى قسمين مقدسة ومدنسة، والمقدسات في الدين على خمسة أنواع هي: نصوص مقدسة، وأماكن مقدسة، وأوقات مقدسة، وشخصيات مقدسة، وشعائر أو طقوس مقدسة. على سبيل المثال، في الدين الإسلامي، القرآن كتاب مقدس، الكعبة مكان مقدس، يوم الجمعة وقت مقدس، وأهل بيت النبي وصحابته شخصيات مقدسة، والصلات والصيام والحج شعائر أو طقوس مقدسة. وفي الدين المسيحي، الإنجيل كتاب مقدس، الكنيسة مكان مقدس، يوم الأحد وقت مقدس، وتلامذة المسيح شخصيات مقدسة وكذلك الصلات والصيام والحج شعائر أو طقوس مقدسة. وكذلك الحال في جميع ديانات العالم، فلا يكاد يخلو دين من هذه المقدسات الخمسة. ومن الجدير بالذكر أن هذه المقدسات مرتبطة مع بعضها ومتداخلة بصورة شائكة جداً، فكثير من الشعائر يستند إلى نصوص أو شخصيات، والكثير من الأماكن مرتبط بأشخاص أو

نصوص، والكثير من الشخصيات أصبح مقدساً بعد أن ورد فيها نص يمجدها أو يمتدحها، وكذلك الحال مع نصوص أصبحت مقدسة لأن شخصاً مقدساً قد ذكرها.

أولاً: قدسية النص:

قدسية النص تعني الاعتقاد الجازم بصدق النص وتعبيره عن الحق، ويضاف لهاتين الصفتين صفة الثبوت وعدم التحريف والتبديل. أما المقصود بالنص الديني فهو كل ما يذكر في الكتب الدينية، سواء كان هذا الدين سماوياً أو وضعياً، وغالباً ما تكون النصوص الدينية مكتوبة. ولكل نص، ديني أو غير ديني، منطوق ومفهوم، والمنطوق هو اللفظ المرتبط بالحرف، أما المفهوم فهو الفكرة التي من المفترض أن يعبر عنها المنطوق.

لا بد لنا الآن من الإجابة عن سؤال نراه مهماً جداً هو: أيهما مقدس في النص، شكل النص (حرفه ومنطوقه) أم مفهومه؟ ولو تتبعنا الإجابات المحتملة عن هذا السؤال لوجدناه ثلاث إجابات: الأولى ترى أن النص الديني مقدس شكلاً ومفهوماً، والثانية ترى أن النص الديني مقدس في شكله فقط، أما الثالثة فهي ترى أن النص الديني غير مقدس لا شكلاً ولا مفهوماً.

يمكن أن يكون شكل النص ثابتاً أو مقدساً، أما مفهوم النص فلا يمكن أن يكون كذلك، فالأفكار والرؤى والمفاهيم التي يحملها النص الديني، أو أي نص آخر، متغيرة من شخص إلى شخص ومن مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان. لذلك نرى أنه إذا سلمنا بقدسية شكل النص (حرفه ومنطوقه)، واعتبرنا انه ثابت ومنزه من كل عيب أو نقص، فمن الصعب أن نسلم بقدسية مفهوم النص، والسبب في ذلك يعود إلى:

1 - إن مفهوم النص الديني متغير من شخص لآخر، أو بعبارة أدق من عقلٍ لآخر، وهذا ما دعا لوجود أكثر من تفسير للنص الديني الواحد، والنصوص الدينية التي يجمع المفسرون على مفهوم واحد لها نادرة جداً.

2 - إن مفهوم النص الديني متغير من زمن إلى آخر، فالنص الذي يحمل مفهوماً في زمن ظهوره أصبح له مفهوم آخر بعد عشرات أو مئات السنين، فهل المفهوم الأول حافظ على قدسيته؟ وهل سوف يحافظ المفهوم الجديد على قدسيته بعد مئة سنة مثلاً؟

3 - إن مفهوم النص الديني متغير من مكان لآخر، فالكثير من النصوص الدينية، خصوصاً تلك التي يترتب عليها سلوك اجتماعي معين، نراها مختلفة في مفاهيمها من مجتمع إلى آخر، وهذا يعني أن فهم النص الواحد يختلف تبعاً لاختلاف العادات الاجتماعية والتقاليد والأعراف السائدة في مكانٍ ما والتي من المحتمل ألا تكون مقبولة في مكانٍ آخر.

هذا الاختلاف في تحديد المقدس وغير المقدس في النص الديني هو السبب الجوهري الكامن وراء الصراع المستعر بين دعاة الثابت ودعاة المتغير، بين دعاة الجمود ودعاة التجديد، بين من يرى في النص الديني الحقيقة المطلقة وبين من يرى فيها الحقيقة النسبية.

يرى بعض المدافعين عن قدسية مفهوم النص أن الاختلاف في فهم النص بالصورة التي ذكرناها أعلاه هي ميزة تضاف إلى النص ولا تحد من قدسيته، ويرون فيها أيضاً قدرة على مواكبة العصر والتطور، وحكمة يتمتع بها مُنزل النص. وهذا كلام حسن ومقبول لدى الجميع تقريباً، لكنهم في الواقع لا يعملون به، فهم يرفضون أي مفهوم جديد يأتي به الفرد للنص، وقد يصل بهم مستوى الرفض إلى حد إخراج صاحب هذا الفهم عن الدين الذي صدر عنه أو ينتمي إليه النص،

وأحياناً هدر دمه وقتله. فهم يرون أن فهم النص لا يمكن التوصل إليه إلا بعد أن يملك الفرد مجموعة من المعارف والعلوم الخاصة، وبذلك يسدون الطريق أمام حتى العديد من الباحثين بحجة أنهم غير متخصصين بدراسة النص الديني، وهذه الحجة تحمل في طياتها شيئاً من الحقيقة وأشياء كثيرة من عدم الحقيقة، أو فلنقل سوء الطوية.

إن المدافعين عن قدسية مفهوم النص، يرون أنهم الأحق في فهم النص، أو بعبارة أخرى، أنهم وحدهم القادرون على فهم النص، لذلك فهم لا يسمحون لأي شخص آخر أن يفهم النص فهماً جديداً أو مغايراً. والغريب في الأمر أنهم ما زالوا متمسكين بفهم قديم للنصوص الدينية لم يعد منسجماً مع متطلبات العصر، بل إنه فهم يتعارض أحياناً مع بعض الثوابت العلمية، سواء في العلوم الطبيعية أو العلوم الإنسانية (الاجتماعية والنفسية والتربوية مثلاً). وإذا ظهر من يخالف المفهوم الراسخ في أذهانهم عن النص اعتبروه معارضاً وجاحداً وكافراً بشكل النص ومصدره وليس مخالفاً لهم في فهم النص، وهذه هي الكارثة.

لكي نتخلص من أزمة قدسية النص الديني علينا أن نفهم أن للنص الديني شكلاً يشمل المكتوب والمنطوق والذي يمكن أن يكون مقدساً، كما أن له مفهوماً لا يمكن أن يكون مقدساً لأنه متغير من شخص لآخر ومن زمان لآخر ومن مكان لآخر، وهذا بالتأكيد لا يمنع من أن يكون النص الديني محترماً شكلاً ومفهوماً. كما أن فهم النص الديني ليس حكراً على أحد، فزمن الاحتكار قد ولى ولم يعد إلا المتطرفون فقط يدعون لأنفسهم احتكار الحقيقة أو احتكار فهم النص الديني. فالباحث في الشؤون الدينية من حقه أن يدلي بدلوه في فهم النص الديني ومن حق المخالفين له أن يردوا عليه ما شاءوا من الردود بشرط أن يتجنبوا العنف، وهذا ما نأمله منهم. فقد ذهب العديد ممن حاولوا فهم النص الديني ضحية لمن يدعون احتكاره، فمنهم من فقد

حياته ومنهم من اتهم بالكفر، ومنهم من اجبر على الصمت وعدم الكتابة، ومنهم من هُجر من بلده ليعيش منفياً في ديار الغربة.

ثانياً: قدسية رجال الدين:

إن قدسية النص الديني تقودنا إلى قدسية المتحدث بالنص الديني، سواء كان شخصية تاريخية أو معاصرة، والذي يصبح مقدساً هو الآخر لأن كل (وهذه هي الكارثة) ما يصدر عنه يجب أن يكون استجابة لفهمه للنص، وهذا ما قاد العديدين إلى فهم النص الديني على ضوء تصرفات وأفعال ذلك المقدس، بل أحياناً كثيرة على ما يراه هذا المقدس في منامه من رؤى وأضغاث أحلام. إن ذلك الخلط بين قدسية النص وقدسية المحتكرين لفهم النص قاد إلى ظهور العديد من المفاهيم المغلوطة للنص الديني، ودعا إلى التمسك بأفعال لا تتصل أحياناً لا من قريب ولا من بعيد بجوهر النصوص الدينية.

لقد أصبح في تاريخ جميع الديانات شخصيات مقدسة، فوق مستوى الشبهات أو النقد، لا يمكن لأي شخصٍ كان أن يذكر لها أي عيب أو زلل أو خلل، فهي شخصيات كاملة ونموذجية ومعصومة. إذا حاول أحد الباحثين أو الدارسين أن يشير إلى حادثة تاريخية يرى فيها أن الشخصية الفلانية المقدسة قد أخطأت، اعتبر هذا مساساً بشخص المقدس، وتقوم الدنيا ولا تقعد إلا بتوبة هذا الباحث الزنديق الذي تجرأ وتطاول على شخص المقدس، وإذا أصر الزنديق على تجرؤه فانه لا ينال سوى التكفير والإخراج من الملة أو فتوى صغيرة تهدر دمه قد ينفذها أحد الشبان المتحمسين، فتكون النتيجة القضاء على ذلك الزنديق الذي حاول أن يمس رموز الدين وشخصياته المقدسة.

إن شخصيات التاريخ المرتبطة بدينٍ ما لا يمكن لها أن تكون مقدسة، فالإنسان هو الإنسان في كل زمانٍ ومكان، وإذا كان احدهم قد اعتنق مبدأ ما وعمل على نشره والتبشير به، فهذا لا يعفيه من الزلل

أو الخطأ، ولن تجعله أعماله مهما كانت سامية ونبيلة من أن يكون فوق مستوى النقد، فهو أولاً وأخيراً إنسان، خُلق حراً مختاراً قادراً على مزاولة الصواب والخطأ، وما دام كذلك فهو ليس معصوماً أبدًا، فهو قد عمل بما يراه صواباً وفقاً لمعتقداته وظروف زمانه ومكانه، وعمله هذا قد لا يكون صائباً في نظر شخصيات أخرى لها معتقدات مختلفة تنسجم مع ظروف زمانية ومكانية مغايرة. وهذه الشخصية التاريخية قد تكون محترمة ومرموقة وحكيمة لكنها أبداً لن تكون مقدسة، بمعنى أنها ليست فوق النقد، وبمعنى أن ليس كل ما صدر عنها هو دستور عمل لنا في زماننا هذا الذي يختلف عن الزمن الذي عاشت فيه هذه الشخصية التاريخية المرموقة.

هذا في ما يتعلق بالشخصيات الدينية التاريخية، سواء كانت في التاريخ البعيد أو القريب، أما في ما يتعلق بشخصيات الحاضر المشتغلة في المجال الديني، فهي ليست سوى شخصيات متخصصة في الشؤون الدينية لها احترامها وتقديرها الموازي لاحترام وتقدير أي متخصص آخر في الشؤون الطبية مثلاً. ومقدار هذا الاحترام والتقدير يكون متناسباً مع مقدار ما تنتجه هذه الشخصية، فليس كل من اشتغل بالطب استحق أن يكون محترماً، فقد يكون نصاباً ومحتالاً، وكذلك الحال مع المشتغلين بالشؤون الدينية. إن المشتغل في الشؤون الدينية يزاول مهنةً مثل أي شخص آخر مشتغل في المجالات الدنيوية، فكلاهما يعمل ليعيش. ميزان التقدير والاحترام، وليس التقديس، يعود إلى مقدار إخلاصهما في عملهما وتفانيهما في إنجازه على أكمل صورة. بهذا المفهوم لا يكون لدينا أي رجل دين مقدس، وليس هناك شخص واحد منهم مهما علت مكانته يصبح فوق مستوى النقد، فكلهم خاضعون للنقد، لأنهم بشر، يخطئون مثلما يخطئ الطبيب في وصف الدواء أحياناً.

ثالثاً: قدسية الأماكن الدينية:

كم هي الأرواح التي أزهقت بحجة الدفاع عن أماكن يعتقد بأنها مقدسة، وكم من حروب نشبت لأن شخصاً ما تجرأ على القول أو الفعل على أحد هذه المقدسات. ومن واجبنا أن ندرك أن المكان لا يعني شيئاً ما لم يرتق بالإنسان، والمكان حتى لو تهدم ففي الإمكان بناؤه من جديد، أما الإنسان فلا. إن هدم كل المقدسات لا يعادل إراقة قطرة دم واحدة من إنسان كرمه الله وقدسه.

لقد أثار هدم المرقد المقدس لدى الشيعة في مدينة سامراء (العراق)، حرباً أهلية بين السنة والشيعة سقط ضحيتها الآلاف، وارتكبت فيها أبشع الجرائم التي وصلت إلى قطع الأعناق وتقطيع أوصال الأطفال، فهل يستحق أي مكان مهما كانت قدسيته، أن تزهق لأجله الأرواح؟ لعل عبارة (للبيت ربٌ يحميه) هي خير جواب وخير درس لنا جميعاً.

رابعاً: قدسية الأوقات الدينية:

هل يحق للمسلمين أن يتصارعوا في ما بينهم ويتهم كل واحد منهم الآخر ببطلان صيامه لمجرد أن احدهم رأى هلال شهر رمضان ليلة الأحد والآخر رآه ليلة الاثنين مثلاً؟ إن أي عاقل لا يقول بذلك ولكن هذا هو الواقع. فقد استسلم المسلمون، وغيرهم من أصحاب الديانات أيضاً، إلى قدسية الأوقات متناسين أو ناسين قدسية الإنسان الذي وضعت هذه الأوقات لخدمته ومصلحته وليس لتقيده وتفريقه عن إخوته. إن الاختلاف في مواعيد الأعياد والصلوات وغيره من المناسبات يمكن له أن يزول إذا علمنا أن الأوقات ليس لها ما نعتقده من قدسية مطلقة لا يمكن تجاوزها أو التخفيف منها.

خامساً: قدسية الشعائر الدينية:

تُمارس الشعائر أو الطقوس الدينية استجابة لمفهوم المقدس سواء كان نصاً أو شخصاً أو مكاناً أو زماناً، وبذلك تصبح هذه الطقوس مقدسة أيضاً، بمعنى أنها تستمد قدسيتها من قدسية ما تستند إليه من نص أو شخص أو مكان أو زمان، والشعيرة المقدسة يمكن لها أن تستند إلى واحدة من هذه المقدسات الأربع أو أكثر، فيمكن لها مثلاً، أن تستند إلى نص مقدس وشخص مقدس فقط، ويمكن لشعيرة أخرى أن تستند إلى شخص ومكان مقدسين، وهكذا. وبعض الشعائر الدينية تسمو بروح الإنسان وتصلح ما عطب منها في زحمة الحياة، والبعض الآخر يحط من قدر الإنسان ويحوله إلى آلة صماء لا تعي ما تفعل. لذلك وجب على كل إنسان أن يتأمل في طقوس وعبادات دينه وينتقي منها ما يعينه على السمو بروحه وعقله ولا يلتفت إلى غيرها من الطقوس التي قد تكون من بدع أُناس يرون فيها مصلحة أو منفعة لهم.

الغرض من نقد فكرة المقدس:

ما هو الغرض أو الهدف من تجديد معنى وطبيعة المقدس؟ هل هو التخلص من فكرة وجود الكمال أو التنزيه في هذا العالم؟ بالطبع لا، إنها فقط محاولة إعطاء العقل مكانته في هذا الوجود. إن فكرة المقدس تعمل على تعطيل العقل في معظم شؤون الحياة تحت شعار القدسية. فليس بإمكان العقل أن يشتغل في فهم النص لان هذا النص مقدس لا يمكن إلا لأصحاب الامتياز أن يفهموه. وليس بإمكان العقل أن ينتقد أو يؤشر إلى مواطن الخلل أو الزلل في هذه الشخصية التاريخية أو رجل الدين ذاك لأنهما مقدسان. ولا يحق للعقل الاعتراض على هذه الشعيرة التي لا يرجى منها نفع لأنها مقدسة. بذلك تعمل فكرة المقدس على تعطيل وظيفة العقل، إنها تحوِّل الإنسان إلى حيوان اجتماعي ينقاد في أفعاله إلى سلوك القطيع.

إن تحرير العقل من هيمنة فكرة المقدس، يفسح المجال لاستيعاب نظرية (التعددية الدينية) التي تعني أن أكثر الديانات تملك الحقيقة، وان أكثر المتدينين محقون في عقائدهم، وأن الله أراد للعالم هذا التنوع والاختلاف، وأن معظم البشر مهتدون. ولعل لنا وقفة مع نظرية التعددية الدينية في مكان آخر من هذا الكتاب، ولكننا هنا نود الإشارة إلى أن فكرة السلام العالمي لا يمكن أن تتحقق إذا لم نؤمن بنظرية التعددية الدينية التي ترتكز على تقليل هيمنة المقدسات الخمسة على العقل.

المقدس والاضطهاد:

بالإضافة إلى ذلك، فان فكرة المقدس تعطي الحق لأُناس معينين أن يتحكموا بمصائر أُناس آخرين، فلربما يكون لشخص واحد حق إشعال الحروب أو سن القوانين ووضع التشريعات بحجة أنه مقدس. إن فكرة قدسية الأشخاص تعزز فكرة الهيمنة والسيطرة أو ما تعرف اليوم بالديكتاتورية، فكثيراً ما قرأنا ورأينا حكاماً يبطشون ويظلمون بحجة أنهم يمثلون صوت الله على الأرض وأنهم مقدسون.

لقد استغل مفهوم المقدس لمحاربة كل صور التجديد والإبداع الفكري في جميع العالم وخلال مسيرة التاريخ الطويلة. فلطالما تعرض العديد من المفكرين إلى الاضطهاد والقتل بحجة تجاوزهم وتطاولهم على مقدسات الدين. كما استغل مفهوم المقدس بشكل بشع في السياسة، فكم من صاحب سلطة استغل سلطته للقتل والتعذيب وشن الحروب تحت شعار قال ليّ الله أو سمعت صوت الرب يقول لي افعل كذا لتنصرني. بين يدي الآن كتاب يتحدث عن حكومة الإسكندر الثالث، قيصر روسيا الذي تولى زمام الأمور عام (1881) والذي كانت فاتحة عهده تنفيذ حكم الموت على أعين الناس في امرأة لأول

مرة منذ نصف قرن وكانت من بين المتآمرين على قتل أبيه الإسكندر الثاني. قال الإسكندر فيما أذاعه غداة تربعه على العرش: (إن صوت الله يهيب بنا أن نقف ثابتين في قمة الحكومة مؤمنين بقوة السلطة الأوتوقراطية وعدالتها، تلك السلطة التي انتدبنا لنزيدها قوة ونحفظها لخير الناس وصالحها من كل عدوان). لقد ارتكب هذا القيصر أبشع الكوارث بحق شعبه الجائع وبحق المفكرين في عصره تحت شعار (إن صوت الله يهيب بنا).

قدسية الإنسان:

لعلنا لا نغالي إذا قلنا إن هناك عدداً من القوانين وضعت لخدمة غير الإنسان. قوانين لم تجلب للإنسان إلا الذل والهوان، يدعي واضعوها أنها جاءت لصالح الإنسان، والحقيقة أنها جاءت لمصلحتهم هم، قوانين أصبحت مقدسة وأُلغيت لأجلها قدسية الإنسان. لعلنا لا نغالي إذا قلنا إنه لا يوجد قانون مقدس على الإطلاق، ولكن يمكن لبعض القوانين أن تكتسب احتراماً عندما تصب في خدمة الإنسان وتقديسه، فالإنسان هو المقدس الوحيد الذي يجب أن تتهاوى أمامه كل المقدسات، فلا المقدسات الدينية ولا المقدسات الوضعية تستحق أن تهدر لأجلها قطرة دم بشرية واحدة. بل من المناسب جداً أن تتضاءل كل المقدسات أمام قدسية الإنسان.

التنمية أحد علامات قدسية الإنسان:

إن الحكومات التي تحترم الإنسان حقاً هي التي توفر له التعليم والصحة والغذاء والسكن وما يرتبط بها من صناعات. أما تلك التي تغفل هذه القضايا وتهتم بقضايا أخرى لا تحفظ قدسية الإنسان لا تستحق منا إلا التنديد والمعارضة. فالتعليم والصحة والغذاء والسكن وما يرتبط بها من صناعات هي محور كرامة الإنسان وقدسيته. ورجل دين يشغل عقول

الناس بقضايا الصراعات بين الأديان ولا يكف عن التشهير بعقائد الآخرين وتخطئتهم ولا يوجه الناس إلى ما يحفظ قدسيتهم وكرامتهم هو رجل دين علينا أن نحذره ولا نطمئن له، لأنه ببساطة لا يحترم النباهة بل يقدس الاستحمار على حد تعبير علي شريعتي.

قدسية الأوطان:

كثيراً ما نسمع شعارات وهتافات تمجد الأوطان وترفعها إلى مرتبة القداسة، وفي مقابل ذلك نجدها تلغي قدسية الإنسان وتحوله إلى مسخ مهمته الدفاع عن الأوطان، فشعار (نموت كي يحيا الوطن) هو من هذه الشعارات التي تضحي بالإنسان وتدّعي تقديس الأوطان. وهذه المشكلة ذكرها الشاعر العراقي أحمد مطر في قصيدته (يسقط الوطن) والتي جاء في بعض أبياتها:

مِنْ بَعدِنا يَبقى التُّرابُ والعَفَنْ.
نحنُ الوَطَنْ!
مِنْ بَعدِنا تبقى الدَّوابُ والدِّمَنْ.
نحنُ الوَطَنْ!

إنْ لم يكُنْ بِنا كريماً آمناً

ولم يكُنْ محترماً

ولم يكُنْ حُرّاً

فلا عِشنا.. ولا عاشَ الوَطَنْ!

ما يقصده أحمد مطر هو أن لا كرامة ولا احترام ولا حرية لأي وطن بدون كرامة أو احترام أو حرية للإنسان. وهذا ما ينبغي أن يدركه الجميع حاكمون ومحكومون، فقداسة الإنسان هي مصدر كل المقدسات.

الخلاصة:

إن الغرض من نقد فكرة المقدس هو: أولاً، تحرير العقل. ثانياً، رفض الهيمنة والاستبداد. ثالثاً، فسح المجال أمام فكرة التعددية الدينية. رابعاً، التمهيد لمفهوم السلام العالمي. وهذه النقاط الأربع تقودنا إلى مفهوم جديد هو قدسية الإنسان، المقدس الوحيد الذي لا يتكلم عن قدسيته إلا القلة، فالإنسان أعلى قيمة في الوجود، وهو الذي من أجله وجدت الديانات وأرسل الأنبياء وظهر المصلحون، وهو الذي من أجله خُلقت كل الموجودات. أما ما يدعيه رجال الدين من وجود خمسة مقدسات هي النصوص والأشخاص والأماكن والأوقات والشعائر، فهي ليست سوى تحجيم لقدسية الإنسان وجعله يعيش لأجل هذه المقدسات المزعومة دون أن تكون هي مسخرة لتقديسه وحمايته وحفظ كرامته وسعادته. ومن الجدير بالذكر، أننا عندما نندد ونحذر ممن لا يحترمون قدسية الإنسان، نعلن صراحة أيضاً أننا نحترمهم كأُناس ونحافظ على قدسيتهم كبشر وليس كرجال دين أو سياسة أو غير ذلك من الصفات. إنهم مقدسون لأنهم بشر. أما التنديد بهم والتحذير منهم فيصب من وجهة نظرنا في باب مقاومة الشر مقاومة سلمية ايجابية غير عنيفة، فالمحبة الحقيقية تقاوم الشر لأنها تهتم بمصير الناس الواقعين تحت تأثير ذلك الشر.

ديانة سلامة موسى

الكُتّاب والدين:

لعل قراءة مؤلفات أي شخص هي خير وسيلة لمعرفة ديانته. ومؤلفات العديد من الكُتاب تبين لنا ديانتهم وعقيدتهم التي عادة ما يكون مصدرها التأمل والتفكير والبحث والتقصي وليس التقليد والإتباع كما هو شائع لدى الكثيرين. ولعل الاطلاع على مؤلفات تولستوي ودوستويفسكي وطه حسين وعباس محمود العقاد وإحسان عبد القدوس وجبران خليل جبران ونجيب محفوظ وغيرهم الكثير تبين صدق ما نقول. ومن بين هؤلاء الكُتاب اخترنا الكاتب المصري الكبير سلامة موسى لنعرض جانباً من عقيدته وديانته.

دين العقلاء:

سلامة موسى (1889 ـ 1963) هو أحد الذين اختاروا دين الإنسانية، ذلك الدين الذي يجهد الإنسان حتى يصل إليه، إنه ليس دين الأبوين، وليس ديناً معلباً يتناوله الإنسان دون تحضير. وليس وجبة سريعة تقدمها مطاعم التيك أواي. دين الإنسانية يعني دين البحث والتقصي. دين أساسه التسامح واحترام الرأي الآخر. دين لا يعرف الإقصاء ولا التهديد ولا الاغتيالات. دين يحترم الجميع وربما لا يحترمه الجميع، لذلك يشقى صاحبه به، ولا يلقى من ورائه سوى التأنيب والمقاطعة وأحياناً السب والتهديد وربما القتل. الدين الذي

آمن به سلامة موسى بُني على الفلسفة والشك والثقافة والعلم، ولم يُبنَ على التقليد والتسليم والجهل والخرافة.

عندما بلغ السبعين من عمره، كتب سلامة موسى في سيرته الذاتية التي دعاها (تربية سلامة موسى) الكلمات الآتية: (إني أؤمن بالمسيحية والإسلام واليهودية. وأحب المسيح، وأعجب بمحمد، وأستنير بموسى. وأتأمل بولس، وأهفو إلى بوذا. وأحس أن كل هؤلاء أقربائي في الروح، أحيا معهم على تفاهم، وأستلهم منهم المروءة والحق والرحمة والشرف). ويضيف أيضاً: (وأؤمن، زيادة على هؤلاء، بحب الطبيعة، وجلالة الكون... وأؤمن بتولستوي وغاندي وفولتير وبيكون). ويلخص سلامة موسى إيمانه: (إن بؤرة إيماني هي الإنسانية، بمن تحوي من فلاسفة وأنبياء وأدباء، وبما تحوي من شجاعة وذكاء ومروءة ورحمة وجمال وشرف).

الدين قلق دائم:

من يؤمن بدين الإنسانية لا يعرف الركود ولا يحب الخمول. بل هو دائم الشك، كثير التساؤل. لا يقبل بسهولة ما يقوله الآخرون. لذلك يقول سلامة موسى: (لا يمكن أن يكون إيماني ساذجاً، كله طمأنينة وتسليم، فأنا بعيد عن هذا الحال، ولا آسف على ذلك. لأنه إذا كان اليقين أروح، فإن الشك أشرف...). الدين في نظر سلامة موسى رأي خاص وقلق دائم، مصدره الثقافة، وغايته استيعاب حركة الكون والوجود، فهو يقول: (واعتقادي بأنه لا يمكن للإنسان أن تتكون له شخصية دينية سامية ما لم يكن مثقفاً، قد حقق النظرة الاستيعابية للكون فنظم عقله وقلبه بحيث ينسجمان في حركة الحياة الكونية والآمال الإنسانية، ووصل في كل ذلك إلى رأيه الخاص أو قلقه الخاص. والدين رأي خاص، ولا يمكن أن يكون عاماً. ويجب أن يبقى قلقاً دائماً).

لأن الإيمان لا ينبغي أن يكون ساذجاً، ولأنه يجب أن يُبنى على مبدأ الشك، لذلك فهو في أمس الحاجة إلى العلوم، وهذا ما نجده في جميع كتابات سلامة موسى تقريباً، فقد كتب عن دور العلم في صوغ دينه قائلاً: (في سني أجد أن مصدر ديانتي، أو بالأحرى ضميري الديني، إلى جنب البوذية والإسلام والمسيحية واليهودية والهندوكية، تعود في كثير من النور الذي أهتدي به، إلى السيكولوجية والبيولوجية والأنثروبولوجية والتاريخ. فإن هذه العلوم قد أفدت منها مغزى المأساة البشرية، مأساة ماضينا وحاضرنا وآمالنا في المستقبل. ولذلك كانت ديانتي موضوعية منطقية، لا ذاتية عقيدية فقط).

تنويه:

هل يستحق من كان هذا إيمانه أن يتعرض إلى النقد والتكفير والمحاربة والاتهام بالخيانة والعمالة والتآمر؟ وهل يستحق أن يتعرض إلى الإهمال الإعلامي، الرسمي وغير الرسمي، والذي لا ينسجم مع الجهود الكبيرة التي بذلها في إنشاء جيل مثقف خلاق. فهو القائل إني لم أحصل على أية جائزة في حياتي من أية جهة رسمية أو حكومية. وبحسب علمنا لم يحصل على أية جائزة حتى بعد مماته!! يقول طه حسين عن سلامة موسى إنه كان يُجيد إخفاء ما يشعر به من مرارة (وراء محبته الغامرة للبشر، وعشقه الصوفي لمصر، وإيمانه الرومانتيكي بالمستقبل). نعم، المحبة والعشق والإيمان هي الصفات التي تميز ديانة سلامة موسى، وهي الصفات التي جعلته إنساناً حقيقياً حمل الخير والمحبة والسلام للجميع.



القسم الثاني
الدين واغتيال الإنسان



يقتلون باسم الله

لا مبرر للقتل:

منذ بدء الخليقة، والإنسان يقتل أخاه الإنسان تحت ذرائع ومسميات شتى. وأبشع هذه الذرائع هي ما تحمل اسم الله. فالذين يقتلون تحت ذريعة الحرب المقدسة، أو قال لي الله، هم مجرمون يفترون على الله بالكذب. لا يريد الله أن يقتل بعضنا البعض تحت أي ذريعة أو مبرر. ولا يريد منا أن نستغل اسمه في حروبنا وجرائمنا، فليس هناك مبرر ولا ذريعة للقتل، لأن الإنسان هو أعلى قيمة في عالم المخلوقات، فكيف نجعل ما هو أدنى قيمة ذريعة لقتل ما هو أعلى قيمة؟

العقول التبريرية:

إن القتلة يملكون عقولاً تبريرية بارعة جداً في التمويه والتزييف. وهم الذين جعلوا من العقل مهزلة. فهم يقتلون الآلاف وأحياناً الملايين بذريعة جلب الخير للبشرية. إن العقل وحده يستطيع أن يبرر القتل، أما الأخلاق فلا يمكنها ذلك. لأجل هذا، يمكن القول دون مبالغة أو افتراء إن الذين يقتلون قد يملكون عقولاً لكنهم أبداً لا يملكون أخلاقاً. إن العقل التبريري الذي يملكه القتلة لا يملكه الأخلاقيون. بعبارة أخرى، العقل التبريري والأخلاق لا يجتمعان. إن من يدعي أنه إنسان عليه ألا يقتل أحداً، أما أولئك الذين يوصفون بأنهم عظماء، وتؤلف عنهم الكتب، وتُصنع لهم التماثيل، وعدد الذين قتلوا بأيديهم أو بأمرهم

يفوق عدد أيام حياتهم، فهم ليسوا سوى مجرمين.

أخطر القتلة:

الزعماء والقادة هم أخطر قتلة التاريخ، لأنهم الأقدر على إيجاد المبررات والذرائع للقتل، وكذلك لأن عدد قتلاهم يكون كبيراً، كما أن أي واحد منهم يمكن أن يصبح قاتلاً من الطراز الأول إذا أراد، ورغم ذلك لا يقول له أحد إنه مجرم. وبدلاً من أن يتعرض هؤلاء الزعماء والقادة إلى المقاومة التي تحمي الفقراء والضعفاء من عنفهم وعدوانيتهم وجرائمهم، تصنع لهم التماثيل ويُصفق لهم المتزلفون.

وليس الأفراد أو الجماعات غير الحكومية هي التي تمنح لنفسها الحق الإلهي بقتل الآخرين، بل هناك الدول أيضاً. فالدول العظمى ترى في نفسها صاحبة الحق في هداية الدول الصغرى إلى طريق الحق والصواب، وهذا الحق ادعاه العديد من الإمبراطوريات في تاريخ العالم البشري، وهو ما تفعله الدول العظمى اليوم والتي ترى في نفسها صاحبة الحق في فعل كل شيء، احتلال البلدان، وقتل الشعوب، وهي لا تنتظر أن يصل إليها الخطر حتى تدفعه عن نفسها، ولا تنتظر موافقة أي شرعية دولية. وقد كتب أحد السياسيين قائلاً: إن على الدول العظمى (ألا تنتظر حتى يتجمع الخطر ويقترب منها، بل لا بد أن تأخذ الحرب إلى أرض العدو وتوجيه ضربات استباقية للقضاء على أي خطر محتمل قبل أن يظهر). ويضيف أيضاً: إن عليها (ألا تنتظر موافقة الدول الأخرى أو المنظمات الدولية حين تتصرف في مواجهة الأعداء، ويجب أن تكون لها حرية التصرف بشكل فردي).

غاندي وتولستوي والساتياغراها:

المعنى الحرفي لكلمة (ساتياغراها) هو (النضال السلمي في سبيل

الحق). ويعرفها غاندي على أنها (قوة الحق). وهي لا تختلف عن دعوة تولستوي التي دعاها (قوة الروح) أو (قوة الحب). ترجمت الساتياغراها على أنها المقاومة السلبية، وهذه الترجمة غير صحيحة، لأن الساتياغراها أبعد ما تكون عن السلبية، إنها مقاومة سلمية للشر، مليئة بالايجابية. ويعبر عن الساتياغراها أيضاً باللاعنف، على اعتبار أن المقاومة السلمية هي مقاومة لا عنيفة.

استطاع غاندي أن يجعل من الساتياغراها ديانة عالمية آمن بها الكثيرون في الهند واستطاعوا بها أن يحرروا بلدهم من احتلال دولة تطلق على نفسها مسمى (الدولة العظمى) وهي انكلترا. يقول غاندي في كتابه (هذا مذهبي): (إن اللاعنف هو مذهبي وديني، وان هذا الدين لقوة فعالة إذ ليس فيه مكان للجبن بل ليس فيه حتى مكان للضعف). ويشترط غاندي الإيمان بالله وبالمحبة كخطوة أولى للإيمان بالساتياغراها، فهو يقول: (اللاعنف هو قانون الجنس الإنساني، وهو في المجال الأخير لا يكون في متناول الذين لا يؤمنون بالله أو بالمحبة). وهو يرى (إن اللاعنف هو الوسيلة وإن الحق هو الغاية).

ولأن تولستوي وغاندي يغتسلان في نهر اللاعنف والمحبة والتسامح، فقد كان من الطبيعي أن تكون بينهما مراسلات عديدة، كانت البديل عن لقائهم المباشر. وقد تضمنت مراسلاتهما عقيدتهما في اللاعنف. ومن يطلع على رسائلهما يجد فيها مدرسة متكاملة في مبدأ اللاعنف الذي نأمل أن يتربى عليه من يدعون لنفسهم التفوق والامتياز واحتكار الحقيقة.

إن تولستوي وغاندي ينطلقان معاً من مشكاة المحبة واللاعنف. أما المجرمون العقائديون فهم ينطلقون من ظلمة احتكار الحقيقة، ومن اعتقادهم الزائف بأنهم رسل الحق المسؤولون عن إنقاذ البشرية من الضلال، ناسين أو متناسين أنهم الضلال والظلام نفسه، لأنهم يبيحون

لأنفسهم قتل الآخرين مستغلين اسم الله في جرائمهم.

هات العدل:

إن أفضل ما نختم به موضوعنا عن الدين والحرب والعنف، هو بضعة أبيات من قصيدة (هات العدل) للشاعر العراقي أحمد مطر التي جاء فيها:

فعلى مُختَلَفِ الأزمانْ

والطُّغيانْ

يَذبحُني باسمِ الرَّحمنِ فِداءً لِلأوثانْ!

هذا يَذبحُ بالتَّوراةِ

وذِلكَ يَذبحُ بالإنجيلِ

وهذا يَذبحُ بالقُرآنْ!

لا ذَنْبَ لِكُلِّ الأَديانْ.

الذَّنبُ بِطَبْعِ الإنسانِ

وإنَّكَ يا هذا إنسانْ.

جرائم العقيدة الدينية

دوستويفسكي والجريمة:

لا يوجد أروع من دوستويفسكي في تصويره لدوافع القتل في روايته (الجريمة والعقاب). في هذه الروية نقرأ عن الإنسان الذي يبيح لنفسه القتل بالاستناد إلى العقل والمنطق. فبطل الرواية ومجرمها، راسكولنيكوف، هو شاب ترك دراسته الجامعية بسبب الفقر. يكتب مقالة بعنوان (جريمة) وينشرها في إحدى الصحف. وهو في مقالته هذه يرى أن هناك أناساً لهم الحق في ارتكاب الجرائم وقتل الآخرين لأنهم مخلوقات غير عادية أو متفوقة. فهو يقسم الناس إلى نوعين: عاديين وغير عاديين، وفرض على الناس العاديين أن يعيشوا مطيعين دون أن يكون لهم الحق في تجاوز القانون وخرقه، أما غير العادون فإن لهم الحق الشخصي، أي غير الرسمي، في ارتكاب الجرائم وخرق كل قانون. والمقصود بالحق الشخصي هو أن يرتكب الجريمة وهو مرتاح الضمير، لأنه يشعر بأن له الحق في تخطي بعض العقبات التي ينبغي تجاوزها لتنفيذ فكرته التي يتوقف عليها إنقاذ الجنس البشري كله. وقد ضرب لنا راسكولنيكوف مثلاً عن ذلك بقوله:

(أنا أرى أن اكتشاف كيبلر ونيوتن مثلاً إذا قدر لها لسبب من الأسباب ألا تتم إلا بتضحية حياة رجل أو عشرة رجال أو أكثر من المائة رجل الذين أرادوا مثلاً أن يحولوا دون ظهورها أو أن يعترضوا سبيلها، فإن لنيوتن عندئذ الحق، بل أن من واجبه، أن يزيح هؤلاء

العشرة أو المائة من الرجال لينهي اكتشافاته إلى البشرية).

هذه الفكرة التي راودت راسكولنيكوف، حول الإنسان غير العادي، هي التي جعلته قاتلاً، وهي نفس الفكرة التي جعلت عدداً من الزعماء والقادة مجرمين قتلة، فهم يرون في أنفسهم أناساً غير عاديين ومتفوقين، ويريدون أن يقدموا النفع للبشرية، فإذا وقف في طريقهم أي عائق فإن من واجبهم إزالته. والأمثلة على هؤلاء كثيرة، فهم موجودون في كتب التاريخ، وفي قصور الزعماء، وعلى كراسي الدوائر الحكومية، وفي الشوارع، وعلى أرصفة الطرقات.

مجرمون عقائديون:

يعرف المحامي شاكر العاني في كتابه (الجريمة) مجرمي العقيدة على أنهم: (الأشخاص الذين يرتكبون الجريمة كواجب تفرضه عقيدتهم، لا بد من تأديته، متأثرين بما تحتمه ضمائرهم وتفرضه عقائدهم عليهم دون التقيد بأحكام القانون الجنائي، يعلو في نفوسهم واجب العقيدة على واجب احترام القانون).

إن فكرة الحق في ارتكاب الجريمة للناس المتفوقين أو غير العاديين تبرز بشكل واضح في كتابات وتصريحات من يُوصفون بالإرهابيين والذين أفضل أن أدعوهم المجرمين العقائديين. فهم يرتكبون الجريمة العقائدية لأنهم يرون في أنفسهم أناساً متفوقين من حقهم بل من واجبهم هداية الناس إلى الحق الذي يملكونه هم ولا يملكه الآخرون العاديون. وأن سبب تفوقهم يعود إلى احتكارهم الحقيقة. هذا هو اعتقادهم، وهو سبب تحولهم إلى مجرمين.

عنف الجماعات الإسلامية:

ترى بعض الجماعات الإسلامية أنها مؤلفة من أفراد غير

عاديين، وهي بذلك تمتلك الحق في استخدام القوة ضد كل من يقف حائلاً بينها وبين الناس. وأنها تمثل المنهج الإلهي الحق الذي من واجبه ومن حقه أن يزيل كل من ينتمي لغير هذه المنهج. وهي ترى أيضاً أن الله يمنح التجمع الإسلامي الذي يتمثل فيه المنهج الإلهي، حق الحركة والانطلاق لتسلم السلطة وتقرير النظام.

وبعض هذه الجماعات الإسلامية ترى أن جميع المجتمعات جاهلية، تشبه جاهلية ما قبل الإسلام، وأن كل ما حولها جاهلية.. تصورات الناس وعقائدهم، عاداتهم وتقاليدهم، موارد ثقافتهم، فنونهم وآدابهم، شرائعهم وقوانينهم. حتى الكثير مما نحسبه ثقافة إسلامية، ومراجع إسلامية، وفلسفة إسلامية، وتفكيراً إسلامياً.. هو كذلك من صنع هذه الجاهلية. وترى بعض هذه الجماعات أيضاً، أن المجتمع المسلم لا يتم إلا بوجود تجمع عضوي حركي غير التجمع الجاهلي، وعلى هذا التجمع ألا يكتفي بالحوار فقط، بل عليه أن يستخدم وسائل أخرى لتبليغ عقيدته، وعليه أن يتحرك ويزحف لتحرير كل الناس، وإذا منعته التجمعات الأخرى من تنظيم حياة رعاياه وفق منهجه، فانه يتحتم على التجمعات الإسلامية أن تزيل هذه الأنظمة بوصفها معوقات للتحرير العام، وذلك ببساطة لان الله يمنحها حق الحركة والانطلاق لتسلم السلطة وتقرير النظام.

يتضح مما سبق، أن بعض الجماعات الإسلامية تبيح لنفسها استخدام العنف تحت مسمى الحق الإلهي، الذي بإمكان أي كائن أن ينسبه لنفسه. فهم يعتقدون بأنهم يحتكرون الحقيقة، لذلك فهم أناس غير عاديين ومتفوقين، ومن حقهم تجاوز القانون لتحقيق أهدافهم السامية، وإنقاذ البشرية من الضلال. إنهم لا يختلفون عن راسكولنيكوف في رواية (الجريمة والعقاب)، فكلاهما يدعي لنفسه الحق الشخصي في ارتكاب الجريمة. لعل الفرق الوحيد بينهما، هو

أن راسكولنيكوف شعر بالندم وتأنيب الضمير بعد ارتكابه الجريمة، أما هؤلاء فلم يشعروا لحد الآن بالندم رغم جرائمهم العديدة والمتكررة.

دين اللاعنف:

لا يمكن لهذا العالم أن يعرف الاطمئنان ما لم يؤمن الإنسان بدين اللاعنف، ويتخلى عن اعتقاده الزائف باحتكار الحقيقة، ويمتنع عن اتخاذ دور المنقذ من الضلال. بهذه المفاهيم الثلاثة فقط يمكن أن يكون الإنسان إنساناً حقيقياً وليس إنساناً بيولوجياً فحسب. أما ما نراه اليوم من عنف وحروب وقتل فمصدره من يدعون لأنفسهم احتكار الحقيقية ومن تخيلوا أنهم المنقذون من الضلال، وهم في الحقيقة ليسوا سوى مجرمين عقائديين لا يختلفون في شيء عن راسكولنيكوف.

تولستوي والمسيحية

المسيحيون والحرب:

ليس المسلمون وحدهم من يرون في أنفسهم التفوق وغير العادية. وليس هم وحدهم من يدعون أن الله منحهم حق القتل. المسيحيون يفعلون ذلك أيضاً، وعدد ضحاياهم أكثر. فرغم أن الإنجيل يقول (لا تقتل) إلا أنهم يضعون لأنفسهم الاستثناءات، فيبيحون خوض الحروب، ومعاقبة المجرمين بالقتل. لعل العقل التبريري الذي يملكه المسيحيون، أو بالأحرى من يدّعون أنهم مسيحيون، أقوى بكثير من العقل التبريري الذي يملكه المسلمون. لذلك يوصف المسلمون بالإرهاب، ويوصف المسيحيون بالتحضر.

وخلال القرون العشرين التي تلت ظهور السيد المسيح، برزت شخصيات وجماعات تصدت للعنف، ونادت بالتمسك بتعاليم المحبة والسلام. ولكن تكاتف أنصار العنف من حكام ووعاظ كذبة، جعل من صوت العنف أعلى من صوت اللاعنف. فاشتعلت الحروب، وسفكت الدماء. وما يزيد القلب حسرة هو أن هذه الحروب كانت ترتكب باسم المسيح، وتحت شعار الحروب المقدسة. ولكن هذا لم يخمد صوت اللاعنف، ولم يمحو كلمة المحبة والسلام، فقد ظهر العديد من الشخصيات والجماعات التي وقفت أمام تيار العنف الجارف، اخترنا من بين أشهرهم الكاتب الروسي ليو تولستوي.

عقيدة تولستوي:

اعترض تولستوي قبل حوال أكثر من قرن على العنف الذي ينتهجه بعض المسيحيين. فهو يرى أن العنف ليس من المسيحية في شيء، وأن الحروب التي يُسخر فيها اسم المسيح، هي حروب ظالمة لا يرضى عنها المسيح، وأن العنف غير مباح تحت أي ظرف من الظروف، فهو يقول: (إني اعتبر عقيدة الكنيسة التي يطلقون عليها عادة اسم المسيحية، مغلوطة، ولا تماثل عقيدتي).

وقد شرح تولستوي عقيدته في اللاعنف في عدد من كتبه ورواياته، من بينها كتاب بعنوان (ما هي عقيدتي؟) ألفه عام (1884) هاجم فيه مبدأ استخدام العنف من قبل الحكومات والذي تدعمه الكنيسة ورجالها. وقد طالب بالتمسك بتعاليم المسيح الواضحة والصريحة، المتعلقة بالمقاومة غير العنيفة للشر، وهاجم رجال الكنيسة بعنف، فقد كتب في تعليقه على هذا الكتاب: (أني أتهم في كتابي «ما هي عقيدتي»؟ معلمي الدين في أنهم يعلمون مبادئ مخالفة لمبادئ المسيح... إن هؤلاء الوعاظ يزيلون عن تعاليم المسيح كل معناها).

وقد أعاد بعد سنوات نشر أفكاره هذه والتأكيد عليها، في كتاب صغير آخر حمل عنوان (ملكوت السماوات في ذاتكم). في هذا الكتاب تعرض تولستوي إلى أربع نقاط رئيسة هي:

أولاً، الدور السيئ لرجال الكنيسة في دعم العنف ومساندته، وفي ذلك يقول: (من بين المخالفات العديدة لرجال الكنيسة تجاه تعاليم المسيح، أبين فيما يلي المخالفة الرئيسية وهي: عدم الاعتراف بتعاليم مقاومة الشر بدون عنف أنها أكبر المخالفات التي تشهد بتشويه الكنيسة لتعاليم المسيح).

ثانياً، رفضه للدول القائمة في عصره والتي تنتهج سياسة العنف،

حيث كتب (حين يختلق رؤساء الدول مسيحية اسمية خارجية، فإنهم يخترعون نظريات لا يمكن تصديقها، بارعة، تتلاءم بفضلها الديانة المسيحية مع الدولة. ولكن كل إنسان في زمننا هذا لا يمكن إلا أن يرى عدم التوافق الواضح بين المسيحية الحقة، مدرسة التواضع وغفران الإهانات والحب، وبين الدولة وكبريائها وأعمالها العنيفة، وعقوباتها، وحروبها. ولا تزيح العقيدة المسيحية الحقيقية كل أمكانية للاعتراف بالدولة فحسب وإنما تحطم دعائمها)، ويضيف أيضاً: (إن تعاليم المسيح تحطم الدولة. وقد فهم الناس ذلك منذ ولادة المسيحية وهذا هو السبب في صلب المسيح).

ثالثاً، أعلن رفضه الصريح للمحاكم التي أُسست على العنف، وهو عنف لا يرتضيه السيد المسيح، فقد كتب متسائلاً: (هل يحق للمسيحي، نعم أو لا، أن يكون عضواً في محكمة تحاكم أمثاله؟ هل يحق له، ما دام مسيحياً مخلصاً لتعاليم المسيح، أن يطلب من هذه المحكمة حمايته بواسطة القوة؟ هل يستطيع المسيحي المخلص لتعاليم المسيح أن يكون فرداً من أفراد إدارة تستخدم العنف ضد الرجال؟).

رابعاً، أعلن رفضه للحروب وللخدمة العسكرية الإلزامية للجميع، فهو يتساءل (هل يستطيع، نعم أو لا، المسيحي المخلص لتعاليم المسيح، أن يتدرب على قتل جاره وعلى ارتكاب القتل بصفته جندياً؟)، وقد استمر في تساؤله هذا قائلاً: (كيف نوفق بين تعاليم السيد المسيح، الواضحة والدقيقة في قلوبنا، حول الغفران، والتواضع والحب لأمثالنا، الأصدقاء والأعداء، وبين ما يطلب منا: ممارسة العنف العسكري ضد رجال من جنسنا ومن جنس أجنبي عنا؟).

تناقض عجيب:

بالإضافة إلى ما سبق، أكد تولستوي على التناقض الذي شيدت

على أساسه الحضارة المسيحية والمتمثل بقبول (قانون الحب) الذي بشر به المسيح وبين (قانون العنف) الذي جاء به الحكام ومن يقف معهم من وعاظ، لذلك نجده يقول: (لقد قبل أبناء العالم المسيحي قانون الحب في نفس الوقت الذي سمحوا فيه بممارسة العنف. زد على ذلك أنهم ما داموا قد أسسوا حياتهم على العنف فإن الوجود الكامل للشعوب المسيحية لم يمثل سوى التناقض المطلق بين ما يبشرون به، وبين الأساس الذي يبنون عليه حياتهم... ولم يكف هذا التناقض عن الاستفحال مع تطور المسيحيين ليبلغ في الزمن الأخير، أعلى درجة له).

لا تقاوموا العنف بالعنف:

أمام هذه الاعتراضات الكثيرة على شكل المسيحية القائمة في عصره، قدم تولستوي اللاعنف وسيلة لمقاومة الشر. فهو لم يدعو الناس لمحاربة الشر بالشر، وإلا كانت دعوته عبثاً. إنه يطلب من الناس ألا يجعلوا أي سلطة على أنفسهم غير سلطة الإله، لذلك نراه يقول: (يتحرر المسيحي من كل سلطة للرجال عليه حين لا يعترف فوقه سوى بقانون الإله الذي أوضحه المسيح. وهذا التحرر لا يظهر مطلقاً بواسطة العنف، أو بواسطة تحطيم أشكال الحياة الموجودة، ولكن في تعديل طريقة فهم الحياة. كل عنف بالنسبة للمسيح هو عمل غير شرعي، لا جدوى منه).

تولستوي مؤمناً:

إن تولستوي مسيحي متدين، آمن بالمسيحية عن وعي ودراسة وتأمل. أخذ تعاليم دينه من منبعه الرئيس وهو الإنجيل، ولم يأخذه من رجال الكنيسة، ولم يقبل على نفسه أن يكون تابعاً لهم. فهو لم يتبع سوى عقله وقلبه. لذلك نحن نرى أن تولستوي مؤمن وليس متديناً

فحسب. عندما وجد تولستوي أن المسيح دعا إلى المحبة والسلام واللاعنف، آمن بذلك، ولم يلتفت إلى ما هو سائد في عصره من تبريرات تبيح العنف. وهو لم يخشَ من إعلان رأيه الواضح والصريح في ما يراه مخالفاً لتعاليم المسيح. وان أروع ما في تولستوي أنه آمن باللاعنف قولاً وعملاً.

الحياة في سبيل الله

ثقافة الموت:

نسمع ونقرأ كثيراً عن الموت في سبيل الله ولكننا نادراً ما نسمع أو نقرأ عن الحياة في سبيل الله. ففي خطب الجمعة يتحدث الخطيب عن فضل الشهيد وعن فضل التضحية لأجل الدين والمذهب. وفي برامج التلفزيون يحدثنا مشاهير الفضائيات عن الفدائيين الأبطال الذين ضحوا بحياتهم لأجل أوطانهم. ونقرأ في الكتب الدينية عن أبطال التاريخ ورجاله الأفذاذ الذين قدموا أرواحهم رخيصة لإعلاء كلمة الدين ورفع راية الإسلام. وجراء ذلك كله ارتسمت في أذهاننا صورة مشوهة عن التضحية وعن الثواب الإلهي الذين اقترن في أذهاننا بالموت، وغابت عن عقولنا صورة العمل النافع في هذه الحياة وما تأول إليه من خير في الدنيا والآخرة. يرى البعض أن ثقافة الموت مصدرها الدين، وهذا غير صحيح، فثقافة الموت مصدرها رجال الدين. الدين يدعونا للحياة والتمسك بها لأنه يرى أنها رصيدنا إلى الآخرة، أما رجال الدين فيرون الموت الطريق الأيسر إلى الآخرة.

ثقافة الشجعان:

إن ثقافة الموت هي السائدة في مجتمعاتنا أما ثقافة الحياة فلا نعرفها إلا نادراً. ولعل السبب يعود في ذلك إلى سهولة التعاطي مع ثقافة الموت التي لا تحتاج إلا إلى التخلص من الحياة كما يفعل

المنتحرون، فثقافة الموت هي ثقافة الجبناء، أما ثقافة الحياة فهي ثقافة الشجعان. إن العيش في حياة يسودها التنازع والصراع يحتاج إلى شجاعة كبيرة ومجهود شاق يبدو أن المتحيزين لثقافة الموت لا يستطيعون تحمله.

في رأيي أن العيش في سبيل الله أصعب كثيراً من الموت في سبيل الله، والذين يعيشون في سبيل الله يتحملون آلاماً تفوق في أحيان كثيرة آلام الموت. أما أولئك الذين لا يستطيعون تحمل مشاق الحياة في سبيل الله فهم عادة يكونون متحمسين لمقولة الموت في سبيل الله والتي ربما تكون طريقاً للهروب والانتحار. لعل الذين يتحملون مشاق الحياة لأجل الخير والعمل النافع ويؤمنون بمبدأ الحياة في سبيل الله هم أكثر الناس صموداً وشجاعةً.

ثقافة التنمية والعمران:

إن إعمار الأوطان وتنميتها تحتاج إلى ثقافة الحياة وليس ثقافة الموت، ولا يمكن أن نبني أوطاننا ونعمر بلداننا ما دمنا لا نعرف سوى ثقافة الموت، ولا يمكن أن نزرع أرضنا ونأكل من محاصيلنا ما دمنا نمجد المنتحرين ونعتبرهم أبطالاً ونعدهم بحور العيون. ولا يمكن أن نحقق خطوة في مجال التنمية والتطوير ما دمنا نكره الحياة ونفضل عليها الموت. إنه من الرائع والجميل أن نجعل ثقافة الحياة هي السائدة، فهي سبيلنا إلى النجاح والتقدم والعمران، لأنها تدعونا إلى الإخلاص في العمل والسعي للنجاح.

ثقافة الموت والجريمة العقائدية:

إن أحد أسباب شيوع الجريمة العقائدية في مجتمعاتنا هو انتشار ثقافة الموت التي ترى أن القتل والتخلص من الآخر المخالف هو

الطريق السليم والصريح والواضح لتحقيق العدل الاجتماعي والنصر العقائدي. ثقافة الموت في سبيل الله تستسهل حل المشكلات عن طريق القتال لأنها تساوي بين الجهاد والقتال. والحقيقة هي أن الجهاد هو تعبير آخر عن الحياة في سبيل الله لأنه يتطلب من الفرد أن يبذل الجهد لتحقيق مصلحة الجميع. إذا غابت ثقافة الجهاد حظرت ثقافة القتال، وهذا هو السبب وراء انتشار أناس ينتحرون بحجة الجهاد في سبيل الله أو يقتلون الآخر بقلب مستريح ينتظر ثواب الله.

علي شريعتي والحياة:

بعث الكاتب الإيراني علي شريعتي عام (1975) برسالة من سجنه إلى طلابه افتتحها بعبارة (إلهي علمني كيف أحيا.. أما كيف أموت فإني سأعرفه). نعم إن تعلم فن الحياة ومنهجها هو الطريق الصعب الذي أراد شريعتي من الإله أن يرشده إليه، وهو طريق يرى شريعتي أن الوصول من خلاله إلى الله ينبغي له أن يمر بالناس أولاً، بل أن هذه الطريق لا يستقيم إلا من خلال مروره بالناس، بمعنى أن يتحمل الفرد مسؤوليته تجاه الآخرين أولاً قبل أن يدعي مسؤوليته تجاه الله. إن تعلم كيفية الحياة بمحبة وتسامح ورحمة وتعاون هي الأهم وهي الأجدى في صلاح علائق الإنسان سواء بنفسه أو خالقه أو إخوته أو بيئته. أما طريق الموت فلا صعوبة فيه، فالموت لا يتمثل بانفصال الروح عن الجسد بل بانفصال الإنسان عن أخيه الإنسان.

دعوة للحياة:

إذا لم نستطع أن ننتقل من ثقافة الموت إلى ثقافة الحياة فلن ننتقل من مقابر الموتى إلى حدائق الأحياء. إننا بصراحة موتى لأن ثقافتنا ثقافة موت، والآخرون أحياء لأن ثقافتهم ثقافة حياة. فنحن نختار طريقة عيشنا وفقاً لطريقة تفكيرنا، فإذا فكرنا بالموت أصبحنا

أمواتاً وإذا فكرنا بالحياة أصبحنا أحياءً. لذلك على المثقفين والإعلاميين ورجال الدين والمعلمين أن ينتقلوا في كتاباتهم وبرامجهم وخطبهم ومحاضراتهم من ثقافة الموت إلى ثقافة الحياة لكي يكونوا أدوات للبناء بدلاً من أن يصبحوا معاول للهدم.

القسم الثالث
في نقد رجال الدين والمتدينين



الدين لا يحتكر الفضيلة

ما هي الفضيلة؟

ليس من السهل أن تجد تعريفاً واضحاً للفضيلة ولكن يمكن أن نضع شروطاً نميز بها الفضائل عن غيرها. وأهم مقياس ربما يتفق عليه العديد، ومنهم رجال دين هو أن (النفع مقياس الفضيلة)، وأن أكثر الناس فضيلة هو أكثرهم نفعاً للآخرين، لذلك يشترطون في الفضيلة أن تكون منسجمة مع ظروف الحياة، بمعنى أن تكون نافعة للحياة ومسيرتها، وللإنسان ومعيشته.

وفي كتابه الجمهورية بحث أفلاطون في معنى الفضيلة وسبلها وغايتها، ومما جاء في هذا الكتاب أن الفضيلة هي السبيل إلى السعادة، وأنها تطلب لذاتها ونتائجها، وهذه النقطة الأخيرة شديدة الأهمية، فالذين يرون أن الفضيلة تطلب لذاتها فقط مخطئون، فالفضيلة لا تكون فضيلة إلا إذا كان لها نتيجة طيبة وأثر ايجابي في حياة الناس ومسيرة المجتمع، وهذا خلاف العديد من الأفعال التي يرى بعض رجال الدين أنها من الفضائل التي يُثاب فاعلوها ويُعاقب تاركوها، والتي هي ليست سوى أفعال جوفاء لا يرتضيها عقل ولا يقبلها منطق لأنها غير منسجمة مع الحياة وغير نافعة للإنسان، فمصدرها عادة هو التراث والتاريخ وليس واقع الحياة، ومع ذلك نجد أن رجال الدين ينسبونها إلى الدين ويعدّونها من الفضائل والأخلاق.

الفضيلة والتفكير الفلسفي:

لعلي لا أغالي إذا قلت إن العديد من الفضائل والأخلاق هي نتاج تفكير فلسفي عميق بشؤون الحياة وهدفها وكيفية العيش فيها. وللفلسفة تعريفات كثيرة، ولا يكاد يوجد تعريف موحد لها، ولكن يمكن القول إن (الفلسفة هي دراسة الوجود بواسطة العقل دراسة لا تعتمد على إيمان مسبق). هذا التعريف يعيننا على فهم الكيفية التي تعمل فيها الفلسفة على خلق الفضائل وصناعة الأخلاق، فالفضيلة في نظر الفلسفة هي ما ينسجم مع العقل وينبع من واقع الحياة وليست تلك التي تنسجم مع النصوص التراثية والتاريخية والدينية فحسب، فالإيمان بمثل هذه النصوص والعمل بها يحتاج إلى إيمان مسبق، وهي ـ أي الفلسفة ـ ترفض الإيمان المسبق لأنه يعيق التفكير السليم، لذلك نجدها لا تعتمد على النصوص في تحديد الفضائل بل على العقل ودراسة الواقع.

لقد ساهمت الفلسفة في صنع العديد من الفضائل التي كانت غائبة عن المجتمعات، وتنمية العديد من الأخلاق التي يحتاجها الإنسان. ولعل خير مساهمة في هذا المجال هي مساهمة الفلسفة اليونانية التي خلقت مجتمعاً ناجحاً استطاع أن يبني حضارة ويقيم مجتمعاً ديناميكياً متطوراً، وكذلك مساهمة الفلاسفة المسلمين، ومؤلفاتهم الكثيرة تعد خير دليل على ذلك. ولربما يستطيع القارئ التأكد من صحة هذا الرأي عند دراسته لكتابي المدينة الفاضلة وحي بن يقظان.

الدين لا يحتكر الفضيلة:

يرى البعض أن الفضائل والأخلاق يرتبطان بالدين ورجال الدين والمتدينين فقط ولا يخرجان عن دائرة هؤلاء، فمن لا ينتسب إلى الفكر الديني أو إلى رجال الدين أو إلى المتدينين لا بد أن يكون

فاسداً فاسقاً لا يتحلى بفضيلة أو خُلق. وهذا في نظرنا غير صحيح لأن الفضيلة والأخلاق لا يحتكرهما الدين ولا رجال الدين ولا المتدينون. الفضيلة والأخلاق هما نتاج التفكير الإنساني بمختلف اتجاهاته وتصوراته ورغباته وأهدافه، وقد ساهمت كل من الفلسفات والآداب والديانات والعلوم والفنون في إيجاد الفضائل والأخلاق. فالدين ليس هو المصدر الوحيد للفضائل والأخلاق ورجال الدين والمتدينين ليسوا هم محتكري الفضائل والأخلاق.

الدين لا يحتكر الحكمة:

كما أن الدين لا يحتكر الفضائل والأخلاق فإنه أيضاً لا يحتكر الحكمة. فمن الآداب والفلسفات والديانات والعلوم والفنون نستقطر تلك الحكمة التي نعيش بها فترة حياتنا، أما أولئك الذين يدّعون أن الدين يحتكر الحكمة فهم مخطئون. فالحكمة تبقى ناقصة بدون الآداب والفلسفات والفنون والعلوم. فالدين مهما كان عظيماً لا يمكن له وحده أن يلامس الواقع بكل تفاصيله كما يفعل الأدب بما فيه من قصة ورواية وشعر ومقالة، ولا يمكنه أن ينافس الفلسفة في تحررها من قيود التقاليد والأعراف والأحكام المسبقة، ولا يمكنه أن يخوض غمار التجربة وجرأة الاكتشاف مثل العلم، ولا يمكنه أن ينطلق في عالم الجمال والخيال مثل الفن. والمقصود بالحكمة هنا ليس ما نفهمه منها في لغتنا العادية، من حسن التدبير وسداد الرأي بل المقصود قبل كل شيء (التعمق في التفكير والتحرر مما يشدنا إلى الواقع اليومي، لننصرف إلى التفكير والنظر في شؤون الكون والحياة، وفي الإنسان ومصيره).

دعوى إلى رجال الدين:

تَعوّدَ رجال الدين على توجيه النصائح والوصايا والتعاليم إلى غيرهم من الناس، واعتقد بأن الوقت حان ليسمع رجال الدين دعاوى

الآخرين لهم. وواحدة من هذه الدعاوى هي ألا يكتفوا بدراسة كتب الدين فقط، بل عليهم أن يدرسوا الآداب والفلسفات والعلوم والفنون دون أن يضعوا أمامهم حواجز من الحلال والحرام التي تقيد التفكير القويم وتعيق نمو الفطرة السليمة. لعلي لا أغالي إذا قلت إن رجال الدين الذين لا يتعرفون على الآداب والفلسفات والعلوم والفنون لا يمكنهم أن يتعرفوا على الفضائل والأخلاق والحكمة بالصورة التي تجعلهم نافعين للحياة والإنسان والمجتمع.

على رجال الدين أن يقرأوا الرواية والقصة والمسرحية والقصيدة، وعليهم أن يدرسوا الفلسفات كافة ومنها الفلسفة الوجودية والمادية، وعليهم أن يدرسوا العلوم الإنسانية والطبيعية، وعليهم أن يتذوقوا الفنون كالرسم والنحت والتمثيل والعزف والغناء. وإذا رفض رجال الدين هذه الدعوى بحجة الحرام الذي شرعوه لأنفسهم، فعليهم ألا يتهموا الآخرين بتجاوز حدود الدين، وعليهم أن لا يُنصّبوا أنفسهم أوصياء على الناس، والاهم من ذلك أن لا يلوموا الناس على عصيانهم لهم، لأنه إذا أراد رجال الدين أن يسمع الآخرون لهم فعليهم أن يسمعوا الآخرين في بالمقابل.

إن رجال الدين الذين لا يتعرفون على الفلسفات والآداب والعلوم والفنون وكذلك الديانات الأخرى غير ديانتهم الخاصة، لا يمكنهم أن يفهموا الحياة وهدفها وكيفية العيش فيها، والاهم من ذلك أنهم سوف لن يدركوا حكمة الله في الاختلاف والتنوع، وسوف يعيشون في نفق احتكار الحقيقة وظلمة اتهام الآخرين بالضلال والكفر. فضلاً عن ذلك فإنهم لن يتمكنوا من إيجاد حلول لصعوبات الحياة ومشكلات المجتمعات وأزمات الإنسان. بعبارة أخرى إن فتاواهم التي يطلقونها لن تكون نافعة لأحد، بل سوف يكون ضررها أكثر من نفعها، لأنها لا تنبثق من الواقع المعاش ولا تعمل على تنظيم

علاقة الإنسان مع أخيه الإنسان.

نتائج فكرة احتكار الدين للفضيلة:

ينتج عن فكرة احتكار الدين للفضائل والأخلاق والحكمة عدد من الظواهر السلبية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، والتي يمكن الإشارة إلى أبرزها في النقاط التالية:

1 ـ التخلي عن الفضائل والأخلاق بحجة التخلي عن الدين: يرى عدد من الشبان أن التخلي عن الدين يعني التخلي عن الفضائل، فتراهم يندفعون في أعمال لا تنسجم مع الفضائل بحجة أن الفضيلة مصدرها الدين، وما داموا قد تخلوا عن الدين فعليهم أيضاً أن يتخلوا عن الفضيلة. في هذا الموضوع يقول المفكر الماركسي هادي العلوي في كتابه (المرئي واللامرئي في الأدب والسياسة): (من الطريف أن بعض مثقفينا المعاصرين الذين نحوا منحى الإلحاد ينغمسون في الإباحية لكي يثبتوا معارضتهم للدين جرياً على الوهم الراسخ في أذهانهم بالجمع بين الدين والروحانية أو بين الدين والفضيلة). وهذا الوضع الذي تحدث عنه هادي العلوي لا يختلف عن الوضع الراهن في بلادنا اليوم، فالعديد من شبابنا الذين دفعهم الدين المتطرف إلى اتخاذ موقف سلبي من الدين، يبحثون عما يخالف الفضيلة والأخلاق لإثبات احتجاجهم على الدين المتطرف، فهم يرون أنهم إذا أرادوا أن يعارضوا المتطرفين فعليهم أن يعارضوا الفضائل والأخلاق، وهذا غير صحيح. لذلك إذا أردنا أن يتمسك الشبان بالفضائل والأخلاق فعلينا أن نبين لهم أنها ليست حكراً على الدين، ولا يهم إن كنت مع أو ضد الدين، المهم هو أن تكون مع الفضائل والأخلاق. في فترة ما بعد احتلال العراق، ساد جو من الهيمنة

الدينية المتشددة على معظم مؤسسات البلد ومنها الجامعات، فقد عمل عدد من الشبان المتشدد على فرض حجاب صارم على الطالبات المحجبات أصلاً، أما غير المحجبات فقد تعرضن للتهديد بالقتل أو رمي بالماء الحارق على وجوهن أو حلق شعرهن في حالة عدم تحجبهن، وقد حدث أن تعرض عدد منهن إلى مثل هذه الحوادث بالفعل. ولقد كانت نتيجة ذلك عكسية، إذ انتشر ارتداء الملابس غير المحتشمة التي تتنافى مع الجو الجامعي والذي من المفترض أن يكون جواً دراسياً وليس احتفالياً. والسبب في هذه النتيجة العكسية هو التمرد المقترن بفكرة أن الدين يحتكر الفضائل والأخلاق.

2 - تقييم الآخرين اعتماداً على المظاهر: إن فكرة احتكار الدين للفضائل والأخلاق والحكمة هي التي تدفعنا إلى الحكم على الآخرين بناء على مظهرهم، فإذا كان أحدهم ملتحياً ومتختماً وحاملاً المسبحة فلا بد أن يكون من أصحاب الفضائل، أما إذا كان غير ذلك فهو من أتباع الشيطان لا محال. إن فكرة ارتباط الفضائل والحكمة بالدين عملت على تضليل عقولنا وجعلتنا نصدر أحكاماً مغلوطة. ولعل المثال البارز بهذا الخصوص يمكن مشاهدته لدى الراغبين بالزواج، فكثيراً ما أجد الشاب الراغب بالزواج يبحث عن امرأة متدينة، وفي نظره أنها ما دامت متدينة فسوف تكون فاضلة وخلوقة وحكيمة. وهو يرى أن تدين الفتاة يتمثل في إسدال الملابس الفضفاضة وارتداء الخمار، الذي يسمونه خَطأً الحجاب، ويُفضل أيضاً أن تكون من الرافضات للموسيقى والغناء والمحاربات لهما، وإذا كانت من أتباع أحد رجال الدين المتشددين في قضايا المرأة فسوف تكون في قمة الفضيلة. أرى من الواجب القول إن الزواج من المتدينات لا يعني الزواج من الفاضلات، وذلك ببساطة لأن

الدين لا يحتكر الفضيلة، ولأن الظروف الاجتماعية الخانقة التي تسود المجتمعات العربية والإسلامية دفعت بالعديد من الفتيات إلى الظهور بمظهر التدين دون السعي للبحث عن جوهر الدين. لذلك على الشاب والفتاة أن يبحثا عن الشريك المتحلي بالفضائل والأخلاق والحكمة أياً كان مصدرها، فليس من الضروري أن يكون الدين هو المصدر الوحيد للفضائل والأخلاق والحكمة.

3 - ظهور المؤسسات الدينية التي تدعي الفضيلة: إن فكرة احتكار الدين للفضيلة والأخلاق والحكمة هي التي تدفع ببعض رجال الدين إلى إطلاق تسمية الفضيلة أو الأخلاق على مؤسساتهم وأحزابهم وجمعياتهم. إذ إنهم يرون أنه إذا أردت أن تنشئ مؤسسة دينية ناجحة فعليك أن تطلق عليها تسمية (الفضيلة) وعلى المنتمين إليها صفة (الفضلاء) أو (الحكماء). والحقيقة هي أن الأحزاب الدينية لا تحتكر الفضيلة ولا تحتكر الحكمة لأن الدين نفسه لا يحتكر الفضيلة ولا يحتكر الحكمة. ولا يختلف الحال كثيراً عند الحديث عن سرقة أموال الناس بواسطة مؤسسات دينية وهمية، فقد استغل عدد من النصابين والمحتالين فكرة احتكار الدين للفضيلة وقاموا بتأسيس عدد من الشركات والمؤسسات الوهمية التي تدعي خدمة الناس والتي تحمل أسماء الفضيلة والخير والبر والتقوى والأخلاق إلى غير ذلك، وسرقة أموال الناس البسطاء والهروب بها بعيداً عن قبضة العدالة.

4 - تزييف أرادة الناخب: من الجدير بالذكر أن النتائج السلبية الثلاث السابقة تقود إلى نتيجة سلبية أخرى هي اعتقاد الناخب أن المرشح المتدين في أي انتخابات هو الأجدر بالفوز، أو أن الحزب الديني هو الأحق بالوصول إلى سدة الحكم، ما دام هذا

الشخص أو هذا الحزب هو رمز للفضيلة والأخلاق والحكمة. وهذه النتيجة في نظرنا هي من أخطر نتائج فكرة احتكار الدين للفضيلة والأخلاق والحكمة لأنها تبعد العديد من الشخصيات المستحقة للفوز عن جدارة واقتدار عن المواقع الإدارية والسياسية المهمة ووقوعها في أيدي أناس متدينين ربما لا يملكون الكثير من الفضائل والأخلاق والحكمة. بعبارة أخرى إنها تعمل على وضع الرجل غير المناسب وغير الكفء محل الرجل المناسب والكفء.

الخلاصة:

من الضروري أن نعلم أن مصادر الفضائل والأخلاق والحكمة متعددة أبرزها الآداب والفلسفات والديانات والعلوم والفنون، وأن الدين لا يحتكرها، لأن بقاءنا على هذا الاعتقاد يسبب لنا الكثير من المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وأن على رجال الدين إذا أرادوا أن يملكوا الفضيلة والأخلاق والحكمة، التي تنفع الإنسان والمجتمع، أن يتعرفوا على الآداب والفلسفات والعلوم والفنون والديانات الأخرى لأن ذلك هو السبيل لفهم الآخر المخالف والتعايش معه، وهو السبيل للتخلص من فكرة احتكار الحقيقة.

رجال الدين والعلم

الدين والعلم:

العلم هو مجموعة المعارف المرتبة في موضوع ما، والعلوم إما إنسانية أو طبيعية، ويصنف الدين على أنه من العلوم الإنسانية. ورجال الدين عادة ينصبون العداء أو يتوجسون خيفة من هيمنة العلوم الطبيعية على عقول الناس، حتى ولو صرحوا بعكس ذلك، فهم يرون أن العلوم الطبيعية قد تقود الناس إلى الإلحاد، أو ربما تنسيهم ذكر الله. أما إذا اتهموا بمعاداة العلم صرحوا قائلين، أننا مع العلم، وأن الدين يوصي بطلب العلم، وأن العلوم الطبيعية التي جاء بها الغرب ليست جديدة لأن مصدرها القرآن.

لو تأملنا في كتابات العديد من رجال الدين لوجدناها تفتقر إلى البحث العلمي الرصين، لأنها عادة ما تكون قائمة على نصوص يرون أنها مقدسة، فيجعلونها مقدمات يقيسون عليها ليصلوا بها إلى النتائج، وإذا كانت مقدماتهم خاطئة، وهو الحاصل في الغالب، وصلوا إلى نتائج خاطئة أيضاً. والدين بهذا النمط من التفكير السائد فيه يفقد الكثير من خصائص العلوم حتى ولو انطبق عليه تعريف العلم المذكور سابقاً، لأنه يفتقر لأسس البحث العلمي القائم على مبادئ كثيرة أبرزها الشك والتجربة والتمثيل العددي للمعلومات، وهو ما لم يتوافر في التفكير الديني السائد، فالشك يعد كفراً أما التجربة فلا وجود لها، والتمثيل العددي، مثل الاستطلاعات، يكون انتقائياً، فرجل الدين

يأخذ ما يلائمه ويسند فكرته ولا يلتفت إلى ما عداها من بيانات وإحصاءات، هذا إذا كان رجل الدين من المنفتحين على شؤون العلم والمعرفة المغايرة للدين.

رجال الدين والتكنولوجية:

يستخدم معظم وربما كل، رجال الدين الوسائل التكنولوجية التي صنعها الغرب، من وسائل نقل أو اتصال، ورغم ذلك يصفون الغرب بالكفر والضلال والانحلال والتفسخ وغير ذلك من الصفات، فما هو السر في ذلك؟ لعلنا لا نغالي إذا قلنا إن غالب رجال الدين يعانون من (انفصال العقل). فهم يدّعون استخدام العقل في التوصل إلى الحقائق الدينية وإصدار الفتاوى، لكنهم لا يحترمون العقل الذي اخترع وسائل النقل والاتصال، بل فعلوا ويفعلون أكثر من ذلك، فهم يحرمون كل جهاز علمي جديد، ولنا في التاريخ عبرة، فقد حرم رجال الدين المطبعة وأخروا دخولها إلى مصر مئة عام، كما حرموا دخول جهاز تكييف الهواء إلى مصر وأصدروا فتوى بهذا الخصوص فحواها (أن الفرنجة الكفرة اخترعوا جهازاً يغير من طبيعة الهواء الذي خلقه الله)، وقد فعل رجال الدين في العراق مثل ذلك عندما حرموا ركوب السيارة واقتناء الراديو ومن بعده التلفزيون.

انتظروا مجيء المُخلص:

زارني صديق يدرس في إحدى المدارس الدينية الشيعية التي تعرف بالحوزة بعد فراق دام سنوات، وكنت قد عرفته قبل أن يلتحق بدراسته تلك، ولأنه طالب علم وجدت من المناسب أن نتحدث عن العلم، لذلك أخذت أحدثه عن التقدم العلمي الهائل الذي أُنجز في مجال تكنولوجيا المعلومات، ولكني فوجئت بعبارة صاحبي الذي قال: (لا تشغل عقلك بهذه المعلومات، إنه علم لا ينفع، إن علينا أن ننتظر

خروج المهدي عجل الله فرجه وسهل مخرجه، واعلم أن جميع هذه الأجهزة المتطورة التي صنعها الغرب الكافر سوف تتعطل بخروجه وعندها سوف نحاربهم بالسيف والرمح!!). وأخذ بعد ذلك يحدثني عن ضرورة ترك التدريس في الجامعة والالتحاق بالدراسات الدينية لأنها تحفظ لي آخرتي وتعصمني من الزلل والانحراف الذي لا بد أن أقع فيه وأنا في الجامعة التي يشوبها الفساد والضلال خصوصاً مع وجود جو من الاختلاط الفاحش، وكنتُ أهز رأسي أسفاً وهو يظن أني أهزه قبولاً وتصديقاً. ومن الطريف القول أنه أثناء حديثه معي رن جرس هاتفه النقال في جيبه، ناسياً أو متناسياً أن هذا الجهاز هو من إبداعات الغرب الكافر.

المسلمون بين العلوم الطبيعية والإنسانية:

يبرر بعض رجال الدين هذا السلوك المزدوج أو المتناقض، والذي نعتبره إحدى علامات انفصال العقل كما ذكرنا، بالقول: (إن الله سخّر لنا رجال الغرب الكافر ليخدمونا، فهم يصنعون ما نحتاج إليه، أما نحن فمتفرغون لعبادته سبحانه وتعالى). ويقول آخر: (إن الإسلام يتسامح في أن يتلقى عن غير المسلم، أو غير التقي من المسلمين، في العلوم الطبيعية مثل: الطب والفلك والكيمياء والصناعة والزراعة وغيرها، ولكنه لا يتسامح في أن يتلقى العلوم الإنسانية مثل السياسة والتاريخ والدين والأخلاق والفن وغيرها من مصادر غير إسلامية). وأن هذه الرخصة في أخذ العلوم الطبيعة من غير المسلم هي رخصة موقتة تزول بزوال سببها، وسببها في نظر بعض رجال الدين يعود إلى (عدم وجود مسلم تقي يؤخذ عنه العلم الطبيعي، وهذا القصور في المسلمين يعود إلى بُعدهم عن دينهم ومنهجهم وعن التصور الإسلامي لمقتضيات الخلافة في الأرض وما يلزم لهذه الخلافة من هذه العلوم والخبرات والمهارات المختلفة). يقول آخر: (إن المسلمين

لم يكونوا ليحتاجوا إلى النظم الاجتماعية والآداب الأجنبية في أي يوم كان، ويكفيهم النظام الإسلامي، ويكفل سعادتهم، ويكفل سعادة البشر عامة. وإنما المسلمون يحتاجون إلى الاستفادة من اختراعات الغرب، وغير الغرب، من اختراعات وصنائع وعلوم، وكل شيء يحسّن وسائل العيش، ما عدا النظام الاجتماعي).

إن الذين يرفضون الاستعانة بالعلوم الإنسانية الغربية، بحجة أنها تتعارض وتتنافى مع تعاليم الدين الإسلامي، عليهم أن يراجعوا أو يستذكروا تاريخ المسلمين الذين استعانوا بفلسفات اليونان ووظفوها في علومهم الدينية دون أن يجدوا في ذلك حرجاً ولا خوف من تعارضها مع القرآن أو السنة. إن علماء المسلمين السابقين أكثر تحرراً وانعتاقاً من قيود الحلال والحرام، والجائز وغير الجائز، من رجال الدين المعاصرين أو حتى من الكثير من متعلمينا الجامعيين، سواء كانوا مدرسين أو طلبة، الذين يخشون من ذكر أو دراسة أي فكر إنساني يبدوا لهم أنه يتعارض مع الإسلام.

حاجتنا إلى العلوم الإنسانية:

مما سبق نلاحظ أن هناك رأيين يفسران تخلف المسلمين في مجال العلوم الطبيعة: الأول يرى أن هذا فضل من عند الله الذي سخر لنا الغرب لخدمتنا وتوفير ما نحتاج إليه في هذا المجال. والثاني يرى أن المسلمين مقصرون في تحصيل العلوم الطبيعية وأنهم لم يستجيبوا إلى مفهوم خلافة الأرض، لذلك يجوز لهم أخذ هذه العلوم من الغرب، أما العلوم الإنسانية فلا يجوز لهم أخذها. والسؤال المهم، هل حقق المسلمون تقدماً في العلوم الإنسانية حتى يستغنوا عن علوم الغرب في هذا المجال؟ واقع الحال يثبت أن المسلمين مقصرون في دراسة العلوم الإنسانية بدرجة لا تقل عن تقصيرهم في مجال العلوم الطبيعة.

لعلنا لا نغالي حين نقول إن المسلمين بحاجة إلى علوم الغرب الإنسانية بنفس القدر الذي يحتاجون فيه إلى العلوم الطبيعية. فعلوم النفس والاجتماع والتربية هي من العلوم المهمة التي لا يمكن الاستغناء عنها، وأنها اليوم أصبحت من الدقة والتخصص بدرجة كبيرة لا يمكن معها أن ندعي أن ما لدينا من قرآن وسنة كافيان لإدارة شؤون الحياة، كما يدعي رجال الدين، وربما هذا لا يعود إلى قصور في القرآن والسنة، ولكن إلى اختلاف المسلمين في طريقة فهمهم وتعاطيهم مع نصوص القرآن والسنة، فكل فرقة منهم تملك فهماً مغايراً عن الأخرى، ونحن نرى أن الاستعانة بالعلوم الإنسانية الغربية وغير الغربية، وفهمها يمكن أن يعمل على توحيد وترقية إدراكنا للنصوص الدينية المرتبطة بعلوم النفس والاجتماع والتربية، وبالتالي تجاوزنا لفكرة احتكار الدين للحقيقة.

تدخلات رجال الدين:

يعاني الدارسون والباحثون في العلوم الإنسانية في مجتمعاتنا الإسلامية من تدخل غير المتخصصين في دراساتهم وأبحاثهم، ومجادلتهم في نتائجها، والاحتجاج عليهم بنصوص القرآن والسنة، وهذا ما لا يحدث عادة مع الباحثين في العلوم الطبيعة التي تؤخذ نتائج أبحاثهم على أنها من الأمور المُسلمات، كما هو الحال في العلوم الطبية عادة، وهذا لا يعني عدم وجود بعض التدخلات في العلوم الطبيعية خصوصاً إذا تعارضت مع بعض النصوص الدينية، ولكنها تكون أكثر وأشد وطأة في مجالات العلوم الإنسانية. والمثال البارز في هذا الخصوص هو ما تعرض له الدكتور علي الوردي من انتقادات وردود وصلت إلى حد التهديد بالقتل، احتجاجاً على كتاباته في علم الاجتماع التي تناولت دراسة طبيعة الفرد والمجتمع العراقي، والدور السلبي الذي يلعبه الدين والعرف في صوغ الفرد والمجتمع، وكذلك تحليله

الاجتماعي لبعض حوادث التاريخ الإسلامي، خصوصاً تلك التي تناولت الفترة الراشدة، والتي لم تعجب رجال الدين السنة والشيعة على السواء، والتي دفعت بأحد رجال الدين، وهو على منبر الخطابة يوم الجمعة، إلى التحذير من الدكتور علي الوردي قائلاً: «إن على الشباب أن يحذروا من ثلاث: الخمر والقمار والدكتور علي الوردي».

جميع الدراسات ضرورية:

يُقَسِّم بعض رجال الدين الدراسات إلى دراسات ضرورية كالطب والصيدلة والهندسة وما شابهها، ودراسات كمالية لا ينبغي تضييع الوقت في تحصيلها فضلاً عن التعرض للمحرمات من أجلها، على حد قولهم، كالفنون والآداب وما شابهها. وعندما سُئل أحدهم عن جواز الانتماء إلى كليات الفنون الجميلة التي فيها قسم التشكيل (النحت والرسم) وأقسام المسرح والتمثيل التي لا تخلو من الاختلاط، أجاب: «لو كانت الدراسة ضرورية للمجتمع كالطب والصيدلة ففيها مصلحة تزيد على مفسدة الحرمة الناشئة من بعض تفاصيل المنهج الدراسي كتشريح الموتى، أما هذه الدراسة فيمكن تركها وعدم التورط بالحرمة وتبديلها إلى دراسة أخرى»، وهو يقصد بالمحرمات التي لا يجب التورط فيها، النحت والرسم والاختلاط بين الطلاب والطالبات في الجامعات.

لقد نسي صاحب هذه الفتوى أن العلوم والفنون والمعارف الإنسانية جمعاء لا تتجزأ ولا ينفصل بعضها عن بعض، فهي متداخلة تداخلاً كبيراً لا يسمح بتقسيمها إلى ضرورية وكمالية. مثلاً، تحدث صاحب الفتوى عن عدم جواز تشريح الميت لغرض الدراسات الطبية، فما هو البديل عن الجسم البشري لدراسة التشريح؟ على أقل تقدير، سيجيب البعض بإمكانية استخدام الدُمى البلاستيك، فمن يقوم بصناعتها؟ ألا تحتاج صناعتها إلى الفنان؟! فكيف يقول صاحب

الفتوى إن الطب من الدراسات الضرورية والفنون من الدراسات الكمالية؟! ألا يعلم صاحب هذا الرأي أن الكثير من وسائل الإيضاح المستخدمة في تدريس جميع العلوم التي يسميها ضرورية تحتاج إلى الفنان لإنجازها؟ ألا يعلم أيضاً أن جميع الأجهزة التكنولوجية التي يستعين بها الطبيب في عمله قام بتصنيعها عدد من المتخصصين في معارف وعلوم شتى ومن بينهم الفنان الذي يضع التصميم لها؟ لذلك علينا جميعاً أن ندرك أن العلوم والفنون والمعارف جميعها ضرورية ومهمة بنفس القدر، ولا يمكن تفضيل أحدها على الآخر. أما ما يتبادر إلى أذهان البعض من أهمية العلوم الطبية والهندسية مثلاً وعدم أهمية الفنون والآداب، فهذا عائد إلى ضعف التفكير الجدلي (الديالكتيكي) الذي من شأنه أن يبين العلاقات الغامضة بين العلوم والمعارف الإنسانية المختلفة وربما المتناقضة أيضاً، وهو على العموم ضعف يعاني منه معظم الناس ومنهم المشتغلون بالعلوم الدينية، وذلك لأنهم شديدو الميل إلى تجزئة المواضيع الحياتية عن بعضها بحجة سهولة دراستها.



ديكتاتورية رجال الدين

طبق ولا تناقش:

يرى بعض رجال الدين أن من علامات الأدب مع الله ألا يسأل المرء عن أسباب الأحكام الشرعية التي فرضها الدين على أتباعه، ولا عن الغرض منها والفائدة المرجوة منها، لأن مثل هذه التساؤلات تعد تجاوزاً على الله وتشكيكاً في حكمته وعظمته تعالى، وأن المنطق السليم في التعامل مع قضايا الدين وتعاليمه هو التزام المرء بعبارة (طبق ولا تناقش) لأنه لا يجوز مناقشة الله وسؤاله عما يفعل ويأمر.

يقول أحد رجال الدين في معرض حديثة عن تفضيل الرجال على النساء في قضايا الأحكام: (مقتضى الأدب الحقيقي أمام الله سبحانه ترك السؤال عن أسباب الأحكام ووجوه الحكمة فيها، لأن مثل هذه الأسئلة تمثل جرأة على الله سبحانه وتعالى، وسوء أدب أمام عظمته، إنما الفرد المؤمن من رجل أو امرأة إذا علم بالحكم الشرعي فعليه الطاعة والامتثال ليعود على نفسه وغيره بالخير والسعادة في الدنيا والآخرة، وكما تقول الحكمة (إن الفرد يجب أن يكون اتجاه طاعة الله سبحانه وتعالى كالميت بين يدي الغسال يقلبه كيف يشاء)، ويكون على مستوى التسليم بالأحكام والقبول لها والرضا بها لا على مستوى التمرد عليها والمناقشة لها، ومن هنا قلنا إن في منطق الدين (طبق ولا تناقش) فإن هذا النقاش أنما يكون اتجاه المخلوق ممكناً لا اتجاه

الخالق. وإنما جاءت بأمثال هذه النقاشات الاتجاهات الاستعمارية الظالمة الغاشمة التي تستهدف إذلال المسلمين وتشكيكهم في دينهم... وكانت من جملة ذلك أن بثوا التساؤل وأشاعوا التساؤل عن الحِكم والأسباب بالأحكام الشرعية وهم يعرفون أن معظم الناس والعوام لا يستطيعون الجواب عليها، فيكفي أن تبقى الشبهة في النفس للطعن بحكمة الله وقدرته، ومن ثم تسبب الشبهات ارتداد الفرد والمجتمع عن دينه).

حقائق عن رجال الدين:

من خلال تأمل هذا القول، وغيره العديد، يمكن ملاحظة عدد من الحقائق التي تقودنا إلى فهم طريقة تفكير عدد من رجال الدين ونظرتهم إلى الآخر غير المنتمي إلى المؤسسة الدينية، هذه الحقائق هي:

1 - إن رجال الدين عندما يدعون الناس إلى عدم التساؤل عن الحكمة والمنفعة المتحققة من تطبيق الأحكام الشرعية إنما يقصدون عدم جواز سؤالهم هم عن هذه الأسباب. فالمعلوم أن الأحكام الشرعية لا تمثل الدين بل تمثل الفكر الديني، وهي أيضاً لا تمثل في الغالب إرادة الله بل إرادة رجال الدين، لذلك فهم يرفضون أن يُناقشوا بحجة أن هذا النقاش هو تجاوز على الله، فهم يعتبرون أنفسهم وكلاء الله في الأرض والناطقين الرسميين باسمه سبحانه.

2 - إن رجال الدين يعتبرون التساؤل والبحث والتقصي سبباً في الكفر بالله والتخلي عن الدين لا سبباً في زيادة الإيمان وثبات العقيدة، أي أنهم لا يقبلون بإيمان العقل والمنطق بل إيمان التسليم والاستسلام، وهو الإيمان الذي حاربه الأنبياء جمعياً. فالأنبياء جاءوا ليخرجوا الناس من عبادة السائد في مجتمعاتهم

ودعوتهم إلى التأمل والبحث والتفكير والتقصي، وهذا ما نلاحظه عند قراءة الكتب السماوية، ومنها القرآن الذي يدعو في كثير من آياته إلى النظر والتفكر.

3 ـ إن رجال الدين يرون في الناس مجموعة من الأغبياء العاجزين الذين لا يجيدون سوى الإتباع والتقليد، لذلك يصفونهم بالعوام. فالعلاقة بين رجال الدين وبقية أبناء المجتمع قائمة على أساس أن رجال الدين هم الأذكياء العارفون الذين لا تخفى عليهم خافية وبقية الناس هم الجهلاء الذين يمكن خداعهم واللعب بعقولهم بسهولة. إن رجال الدين لا يثقون بالناس وقدرتهم على معرفة الصواب من الخطأ، لذلك فإنهم لا يحترمون المثقفين والعلماء والمفكرين مهما كانت مكانتهم لمجرد أنهم لا ينتمون إلى الوسط الديني وإلى شلة رجال الدين. ومن الجدير بالقول أنه في حالة وجود أناس جهلاء غير متعلمين في المجتمع فمن واجب رجال الدين أن يعلموهم ويثقفوهم ويبذلون الجهد في ذلك بدلاً من أن يجعلوهم مقلدين وتابعين فقط.

4 ـ إن رجال الدين يعتبرون أي اعتراض على أحكامهم وفتاواهم من قبيل المؤامرة على الدين ورجال الدين وليس من قبيل تصحيح ما يمكن أن يكون خطأً وقعوا فيه. ولعل هذا هو السبب وراء وجود عدد من الأحكام الدينية المتخلفة وغير المنسجمة مع مصلحة الفرد والمجتمع، والتي من المحتمل أنها تعود إلى قرون طويلة مضت ومع ذلك لا يحق لأي فرد أن يعترض عليها أو حتى يطلب مجرد النظر فيها.

القيود الدينية:

لعل ليس من الغريب القول إننا نحتاج إلى الدين في العديد من أركان حياتنا، ولكن ما حدود هذا الاحتياج؟ وهل الدين قيد يشدنا إلى أحكام وقوانين وقواعد وجدت من قبل أن نولد، وأصبحنا ملزمين باتباعها؟ هل مفاهيم الحلال والحرام جميعها صائبة ومقدسة؟ إن الدين ليس قيداً، إنه الحرية المطلقة، لأنه من عند الله، ولكن المعارف الدينية، والتي هي مجموعة المفاهيم والتفسيرات البشرية للنص الديني، هي التي تقيد الإنسان، لأنها ليست من عند الله، فالتفسيرات الدينية، أو المعارف الدينية، هي التي تحول الدين إلى مجموعة من المحرمات والطقوس والشعائر، التي ليس لها أصل في أحيان كثيرة بالدين. إن الفهم البشري الخاطئ للنص الديني هو المسؤول عن ذلك.

وكثيراً ما يحمل الناس الدين خطأ التفسيرات البشرية له، فينسبون إليه التشديد والتقيد والتعقيد، ولا يعني كلامنا هذا أن الدين لا يخلو من بعض تلك الصفات، لكنها قليلة قياساً بما يفرضه علينا رجال الدين.

معنى الحرية:

من الجدير بالذكر، أن الحرية لا تعني التسيب والانحلال ولكنها تعني الفهم السليم للدين والحياة. ونحن هنا نقول الفهم السليم وليس الفهم الحقيقي للدين، والمقصود بالفهم السليم هو الذي ينسجم مع شؤون الحياة ولا يقف عائقاً لها. وعندما نتحدث عن الحرية لا نقصد بالضرورة حرية السلوك بل قبل ذلك حرية التفكير والفهم والاعتقاد للنص الديني، أما أولئك الذين يحصرون الحرية بالممارسات فهم يحاولون سد الطريق أمام عقل الإنسان. إذا تحررت عقولنا فسوف

تتحرر قدرتنا على التواصل مع خالق الكون ومبدعه، ولعل هذا أحد أهداف الدين وغاياته.

أعظم ديمقراطي:

علينا أن ندرك جميعاً، أن أعظم ديمقراطي في الكون هو الله، لأنه خلقنا وأنعم علينا، وترك لنا حرية طاعته أو عصيانه، وهذا ما لم ولن يفعله أي مخلوق، وهذا ما لم يفعله الإنسان الذي يملك غريزة حب السيطرة والتي تدعوه إلى الهيمنة على الآخرين بوسائل شتى منها استغلال الدين كسلطة عليا. وجدير بالذكر، أن العقوبات التي وجهها الله إلى بعض الشعوب كما ترويها الكتب السماوية، ليس لأنهم لم يؤمنوا بالله كما يعتقد البعض، ولكن لأنهم تجاوزوا على الإنسان، وهذا ما يجب التأكيد عليه لفهم ديمقراطية الله في خلقه.



العلمانيون ورجال الدين

العلمانيون والدين:

أصبحت العلمانية تهمة يتعرض لها كل من لا تبدو عليه مظاهر التدين، كما أصبحت سلاحاً بيد الجماعات الدينية تشهره بوجه من لا يتفقون معهم في الفكر والتوجه. فما هي العلمانية؟

كلمة علماني هي ترجمة غير دقيقة لكلمة فرنسية مشتقة من أصل يوناني، تعني (كل من ليس كهنوتياً، أو من لا ينتمي لرجال الكنيسة). وهي كلمة لا ترتبط بأي علاقة اشتقاقية بكلمة عِلم، وبذلك يكون العلماني لدى المسلمين، كل من ليس رجل دين، أو من لا ينتمي إلى مجموعة المشتغلين بالدين من علماء وشيوخ ومفتين ومراجع، إلى آخر ذلك من المسميات. وبهذا المعنى يحق لنا تسمية معظم المسلمين بالعلمانيين. ولكن العلمانية في الفهم المعاصر تحمل معنى آخر، فهي (تعني أن جزءاً من الحياة البشرية يقع خارج سلطة رجال الدين). وهي تعني أيضاً أن يُمنح الإنسان حقه في التفكير دون قيد أو شرط، ودون تدخل أي مفاهيم مسبقة، أنها (التفكير بالنسبي على انه نسبي وليس مطلقاً). والعلمانيون يرون ضرورة فصل الفكر الديني عن السياسة، وليس فصل الدين عن السياسة، بمعنى ترك الحرية للعقل في إدارة شؤون الحياة بعيداً عن الفهم البشري للنصوص الدينية، وهذا لا يعفي العلمانيين من التمسك بالأخلاق والفضائل في عملهم السياسي، والتي تعود، أي الأخلاق والفضائل، في بعض أصولها إلى الدين. فهل

العلمانية بهذا المعنى جريمة يُعاقب عليها المرء؟ أليس من حق الإنسان التفكير بعيداً عن قيود السلطة الدينية؟ أليس من حقه أيضاً، أن يشك في كل قضية حتى تثبت صحتها؟

العلمانيون والكفر:

إن من يريد أن يصف العلمانيين بالكفر لم يفهم بعد معنى العلمانية، أو أنه يفهمها بطريقة خاطئة. فليس كل من لا يشتغل بالدين ملحداً أو كافراً، وليس كل من يحترم العقل ويرى فيه مصدراً للمعرفة والحق والعدل والخير وغير ذلك من الفضائل يعد كافراً. إذا كان بعض العلمانيين ملحدين فهذا شأنهم، وليس من حق المشتغلين بالدين أن يصفوا جميع العلمانيين بالإلحاد. هناك علمانيون مؤمنون، هم لا يشتغلون بالدين، ولكنهم لا ينكرون الدين، ولا ينكرون الأخلاق المستمدة منه. كل مشكلتهم أنهم لا يشتغلون بالدين وأنهم لا يقبلون بسلطة المشتغلين بالدين عليهم.

لعل جزءاً كبيراً من الصراع بين رجال الدين والعلمانيين يعود إلى اعتقاد رجال الدين بأنهم يحتكرون الحقيقة، وبأن لهم الحق بامتلاك السلطة أياً كان شكلها، لأنهم خلفاء الله في الأرض والأقدر على تطبيق شريعته الحق، والعلمانيون لا يعترفون بهذا الحق. هذا هو أصل الصراع بين رجال الدين والعلمانيين، ولكي نتخلص منه على الجميع أن يتخلى عن فكرة احتكار الحقيقة.

هل الدين هو الحل؟

إن العلمانيين لا يؤمنون بشعار (الدين هو الحل)، وذلك لأنه لا يوجد إسلام واحد ولا مسيحية واحدة ولا يهودية واحدة ولا بوذية واحدة، فلكل من هذه الديانات عدد من المذاهب وكل مذهب يدعي

لنفسه الحقيقة. لذلك فإن شعار (الإسلام هو الحل) يُعد مرفوضاً من قبل العلمانيين، لأنهم يرون أن الإسلام يحتوي على عدد من المذاهب كل منها يدعي لنفسه احتكار الحقيقة، فأي من هذه المذاهب يمكن أن يقود المجتمع ويضع له الحلول؟، فضلاً عن ذلك فإن كل مذهب فيه العديد من الاتجاهات التي تتعارض وتتضارب مع بعضها، بل وتتصارع وتتقاتل في ما بينها، وكثيراً ما يكفر بعضها البعض. إن شعار (الإسلام هو الحل) في نظرهم يُعد شعاراً غير واقعي، ولكنه حقق انتشاراً واسعاً بين الناس لأنه يدغدغ مشاعر الناس المحبة للإسلام ونبيه وصحابته وأهل بيته، وهذا ما تعرفه جماعات الإسلام السياسي بشكل جيد.

ولأن الواقع الديني السائد في مجتمعاتنا غير مؤهل لإقامة نظام سياسي واجتماعي وثقافي واقتصادي يخدم مصالح الجميع، لذلك كان من الضروري أن يكون النظام السياسي العلماني الذي يجمع كل طوائف المجتمع ويحفظ لهم حقوقهم هو الحل. لذلك فإن أدق تعريف للعلمانية من منظور سياسي هو التعريف الذي قدمه صادق جلال العظم والذي جاء فيه: «إن العلمانية هي الحياد الإيجابي للدولة وأجهزتها ومؤسساتها إزاء الأديان والطوائف والمذاهب والاثنيات التي يتألف منها المجتمع المعني بها». ووفقاً لهذا التعريف يكون دور الحكومات العلمانية هو توفير الخدمات والرفاهية لأبناء الشعب بمختلف طوائفه ومذاهبه واثنياته دون تفريق أو تمييز، ولا يكون من مسؤوليتها تقديم أي أيديولوجية دينية، بل تترك ذلك إلى مؤسسات المجتمع المدني بما فيها المؤسسات الدينية المختلفة. وبهذا يتضح أن العلمانية لا تفصل الدين عن المجتمع بل تفصل الدين عن الحكومة.



المسلمون سجناء التاريخ

سجناء التاريخ:

لا يكاد يخلو شعب من تاريخ يحفظه ويتأثر به، ولكن بعض هذه الشعوب يتحرر من أحداث التاريخ والبعض الآخر يبقى حبيساً لها مهما أوغل هذا التاريخ في القدم، وأكثر أحداث التاريخ هيمنة على الشعوب هي المرتبطة بالدين أو التي تشكل جزءًا منه، وهذا ما حدث للمسلمين الذين يتحكم بهم التاريخ أكثر مما يتحكمون هم بأحداث حاضرهم ومستقبلهم، وهم لذلك سجناء التاريخ.

المسلمون حريصون على تمجيد شخصيات التاريخ، التي غالباً ما تكون شخصيات دينية، وأكثرها شخصيات خاضت حروب ومعارك ضد الآخر الذي يعد كافراً، لذلك نحن نعاني من عقدة الآخر، وهي عقدة ورثناها من تاريخنا. ويزداد المسلمون حيرة وحسرة عندما تتقاتل شخصيات التاريخ المسلمة مع بعضها، خصوصاً وأنها في نظرهم شخصيات مقدسة، فكيف للمقدس أن يقتل المقدس الآخر؟ هذا التاريخ المتناقض يلقي بثقله على الحاضر المتأزم، وكثيراً ما كان هذا التاريخ سبباً في خلق الصراعات بين أنصار شخصية تاريخية ما مع أنصار شخصية تاريخية أخرى، فكل من الطرفين المتصارعين يعيش في التاريخ الغابر ولا يرى في الحاضر إلا امتداداً لما جرى في التاريخ، فإذا تصارع زيد مع عمر قبل (1400) سنة فعلى أنصار زيد أن يتقاتلوا اليوم مع أنصار عَمر!!

قصة طريفة:

ذكر الدكتور علي الوردي في كتابه (مهزلة العقل البشري) قصة طريفة حصلت له عندما كان في زيارة إلى الحي العربي في مدينة ديترويت بأمريكا ننقلها لكم كما دونها، إذ يقول: «وقد اندهشت حين وجدت نزاعاً عنيفاً ينشب بين المسلمين هناك حول علي وعمر، وكانت الأعصاب متوترة والضغائن منبوشة. وكنت أتحدث مع أحد الأمريكيين حول هذا النزاع الرقيع. فسألني الأمريكي عن علي وعمر: هل هما يتنافسان الآن على رئاسة الحكومة عندكم كما تنافس ترومن وديوي عندنا؟ فقلت له: إن علياً وعمر كانا يعيشان في الحجاز قبل ألف وثلاث مئة سنة وهذا النزاع الحالي يدور حول أيهما أحق بالخلافة! فضحك الأمريكي من هذا الجواب حتى كاد يستلقي على قفاه. وضحكت معه ضحكاً فيه معنى البكاء. وشر البلية ما يضحك!».

إن هذه القصة كثيراً ما تتكرر في حياتنا اليومية، فكل واحد منا شهد أو اشترك في صراع من هذا النوع الذي ينسينا حاضرنا ويعمق سجننا في التاريخ. لذلك، لا أغالي إذا قلت إن الكثير من صراعاتنا اليوم سببها التاريخ المليء بالحروب والنزاعات والمؤامرات التي لم تكن مع الآخر غير المسلم فقط، بل بين المسلمين أنفسهم، وأحياناً كثيرة بين زعماء وقادة المسلمين الذين يُعتقد بأنهم مقدسون.

سجن التاريخ والتفكير العلمي:

يرى الدكتور فؤاد زكريا في كتابه (التفكير العلمي) أن الخضوع إلى السلطة، بما فيها سلطة التاريخ ورجاله، يرتبط بعلاقة جدلية مع التفكير العلمي، فهو قد يكون سبباً في إعاقة التفكير العلمي أو قد يكون نتيجة له.

ويرى الدكتور فؤاد زكريا أن ما يعتقده الناس من صحة الأفكار

القديمة وتفوقها على الأفكار المعاصرة هو خطأ فادح (لأن القدماء كانوا بشر مثلنا، معرضين للصواب والخطأ)، ولأن (قدم الرأي لا ينبغي أن يعد دليلاً على صوابه، وأن البشرية قد عاشت ألوف السنين على أخطاء لم تكن تجرؤ على مناقشتها لأنها ترجع إلى عهود الأجداد الأوائل، ومع ذلك تبين لها خطأها عندما ظهر مفكر قادر على تحدي سلطة القديم). وبذلك يتضح أن الخضوع لسلطة القديم قد يؤدي إلى إعاقة التفكير العلمي وتعطيله عن أداء مهمته في ارتقاء وتنمية المجتمعات وتحسين عيشة الإنسان.

إن السبب الكامن وراء تقديس القديم، وفقاً لما يراه الدكتور فؤاد زكريا، هو: «أن الإنسان، إذا كان يضيق بحاضره، أو يجد نفسه عاجزاً عن إثبات وجوده في الحاضر، يصبغ الماضي بصبغة ذهبية، ويتخذ منه مهرباً وملجأ يلوذ به»، ويضيف: «والواقع أن الميل إلى الأخذ بسلطة القدماء يزداد في عصور الركود والانصراف عن التجديد، ولا يمكن القول إنه ميل طبيعي في العقل البشري». ولعل هذا هو حال المجتمعات العربية والإسلامية التي عجزت عن مواجهة الحاضر فلجأت إلى تمجيد الماضي إلى الحد الذي أصبحت فيه سجينة التاريخ ورجاله لا تملك منه فكاكاً أو تحرراً.

العراقيون في سجن التاريخ:

وإذا أردنا أن نستشهد بمثال عن مدى تأثير التاريخ على واقعنا فليس هناك أفضل من مثال نقدمه من واقع العراق الحالي. فبعد حادثة التفجير الثاني لمرقد سامراء المقدس لدى الشيعة في (حزيران/ 2007) كان من المتوقع جداً أن تكون ردود أفعال الشيعة عنيفة ضد المقدسات السنية، وقد حاول رجال الدين الشيعة والسنة تهدئة الأوضاع بإصدار بيانات تطالب بالتهدئة وضبط النفس من قبل الشيعة وبيانات الاستنكار

والتنديد من قبل السنة، ولكن هذا لم يمنع من قيام الشيعة بتهديم مقدسات السنة الموجودة في المناطق الشيعة. وقد تساءل البعض لماذا لم يستجب الشيعة لبيانات التهدئة التي أصدرها علماؤهم؟ والجواب في نظري يعود إلى كون الشيعة حبيسي التاريخ الذي رواه لهم علماؤهم، فالشيعة يستذكرون في كل عام حوادث مقتل أئمتهم على أيدي رجال يمجدهم السنة ويعلون من شأنهم، وهذا ما صور للشيعة أن السنة يريدون قتلهم كما فعل أسلافهم من قبل مع الأئمة. ومن الجدير بالذكر أن مثل هذه الحوادث التاريخية لم يقرأها الذين دمروا مراقد السنة، بل هم سمعوها من رجال دينهم، فثقافة القراءة والبحث والتقصي وفهم الأحداث في إطارها وظروفها التاريخية لم تصل بعد إلى عقول الكثير من المسلمين. إن ثقافة السماع هي السائدة والمسيطرة، وهذا ما يساعد على البقاء في سجن التاريخ.

إن رجال الدين الشيعة يشحنون أتباعهم بنار الكراهية ضد السنة طيلة العام وفي كل مناسبة، وعندما يحتدم الصراع وتغلي النفوس بالكراهية، بسبب حادثة ما، كحادثة تفجير مرقد سامراء، يقومون بإصدار بيانات التهدئة!! إن مثل هذه البيانات لا يمكن لها أن تعيد إلى الناس عقولهم في وقت غضبهم، فما أفسدته الخطب لا تصلحه البيانات.

ومن الجدير بالذكر، أن ما يفعله رجال الدين الشيعة يفعله أيضاً رجال الدين السنة، فهم أيضاً يشحنون الناس بكراهية الشيعة وعقائدهم، ويستعينون بذلك بحوادث التاريخ ليبقوا أتباعهم في سجن التاريخ الذي يقضي على حاضرهم ويلغي مستقبلهم. فما جرى ويجري وسوف يجري من صراع بين المسلمين بمختلف أنواعه ومستوياته يعمل على تدمير حاضرهم، فهم مشغولون في التاريخ، ولا هم لهم إلا أثبات أحقية أناس تقاتلوا قبل قرون.

المقدسون وسجن التاريخ:

إنها مهزلة حقاً أن يتصارع المسلمون لأجل أناس تقاتلوا أو اختلفوا قبل قرون طويلة دون أن يفكروا بالآثار السلبية للصراع التاريخي على حاضرهم. إننا حقاً سجناء التاريخ، وسوف لن يكون لنا حاضر ولا مستقبل ما لم نتحرر من هذا السجن، وليس من السهل أن نتحرر من سجن التاريخ ما لم نحرر عقولنا من سجن المقدس في التاريخ.

ولعله من المناسب القول إن اعتقادنا بقدسية المتصارعين عبر التاريخ هو الذي يدفعنا إلى البقاء في هذا السجن، لذلك علينا أولًا أن نعرف أن هؤلاء الذين تصارعوا في ما بينهم لم يكونوا سوى أناس عاديين، لعلهم اعتقدوا بأن ما يفعلونه صحيح وانه يخدم عقيدتهم، ولا يعنينا من أمر صراعهم اليوم شيء، ولا يهمنا أياً منهم كان على حق وأي منهم كان على باطل، لأن هذا لا يقرر أياً منا اليوم على حق أو على باطل، فأتباع أهل الحق في التاريخ ليس بالضرورة أن يكونوا أصحاب حق اليوم. إننا بحاجة إلى أن نتخلص من قدسية رجال التاريخ ونعاملهم على أنهم أناس عاديون هذا هو سبيلنا للخلاص من سجن التاريخ.



الجوامع التحريضية

دور الجوامع:

لعلي لا أغالي إذا قلت إن الجامع لم يعد المؤسسة الدينية التي تعمل على تنظيم العلاقات الاجتماعية والأسرية وفقاً لمبادئ المحبة والتسامح والرحمة، كما كان معروفاً سابقاً، بل تحول إلى مركز للتحريض وإشعال الفتن، فهو يقوم بدور تحريضي أكثر منه توفيقي، والسبب في ذلك، في نظرنا، يعود إلى أن القائمين على الجامع اليوم يدّعون لأنفسهم احتكار الحقيقة ويمنحونها بدورهم إلى أتباعهم ممن يحضرون إلى الجامع، وبالتالي يطالبونهم بأن يقوموا بدور المصلحين الهداة وذلك قبل أن يصلحوا أو يهدوا أنفسهم عادة. وهم لا يعرفون آيات من مثل، ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون، 6] و﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص، 56] و﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف، 29]، بل يعرفون مقولات من مثل (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده) و(قاتلوا الناس حتى يقولوا لا اله إلا الله). ومن جراء ذلك كله نجد أن الذين يترددون على الجوامع اليوم غالباً ما يكونون متشددين ومن دعاة احتكار الحقيقة، ولعل هذا لا ينطبق على كل الجوامع، فلربما توجد جوامع تقوم بدور تربوي واجتماعي لا بأس به ولكنها للأسف قليلة ويتضاءل دورها يوماً بعد يوم مقابل توسع وانتشار للجوامع التحريضية.

تخريب المجتمع والأسرة:

إن ما يتعرض له الناس من تغييب للعقل والتفكير، وإلغاء للمحبة والتسامح، والتحريض على العنف والعدوان، من قبل بعض رجال الدين، والذي ندعوه الغزو الديني التحريضي، لا بد أن تكون نتيجته الحتمية دمار الأسرة وشيوع العداوة والبغضاء بين أفراد المجتمع الواحد.

كتب الدكتور محمود التهامي في مجلة روز اليوسف في عددها المرقم (4119) الصادر بتاريخ (5/ 2007) مقالة بعنوان (الذين يخربون بيوتهم بأيديهم) جاء فيها: «ذات مرة حضرت صلاة جمعة في أحد المساجد دون سابق معرفة به، وكنت بالجوار بالصدفة، فإذا بخطيب الجمعة يتخذ من الناس رهائن لمدة لا تقل عن خمسين دقيقة وكلامه كله حث لأمة المسلمين على الجهاد ضد الفساد الخلقي الذي تفشى في البلاد، وتحريض الآباء والأزواج ضد انفلات بناتهم وزوجاتهم و«أكسر للبنت ضلعاً يطلع لها اثنا عشر»، وكلام كثير من هذا القبيل، كله تحريض على الضرب والحبس والعقاب ومنع التلفزيون «المسخرة» والأفلام «الموبقات» وستر عورة المرأة وهي كل جسدها بـ «الشادور» أو ما أشبه». ويضيف الدكتور التهامي معلقاً: «الحقيقة أنني كنت أتعجب من الخطيب الذي يقول هذا الكلام ومن الناس الذين استسلموا للسماع وأنا منهم، وخرجت مع الباقين مثلي في حالة من الاكتئاب والغيظ، وبالطبع فإن البعض ذهب إلى بيته ليضرب زوجته وبناته، والبعض الآخر أصبح مستعداً لذلك بفتوى خطيب الجمعة. وهكذا أصبحت صلاة الجمعة موضعاً لتحريض النفوس وشحنها وليس تهدئة الخواطر ومعالجة ضغوط الحياة النفسية وإرشاد الناس إلى سبل صحيحة لحل مشكلاتهم».

فيلم «الأبواب المغلقة»:

وقضية التدخل السلبي لرجال الدين في المجتمع تم التطرق إليها من قبل السينما المصرية في بعض أفلامها، أكثرها وضوحاً في هذا المجال هو فيلم «الأبواب المغلقة». وقصة الفيلم تدور حول فتى في بداية مراهقته يعيش مع والدته في حي فقير، الأب متوفى، والأم تعمل خادمة في البيوت. يتردد الابن على جامع الحي لغرض أخذ دروس تقوية في المواد المدرسية لعدم قدرته المالية على أخذ الدروس الخصوصية. وفقاً لوجهة نظر الفيلم، فإن هذه الدروس في الجامع هي الخطوة الأولية لاصطياد الفتيان الصغار لغرض جرهم إلى مجموعات الإسلام المتطرف.

أحد المشاهد المهمة في هذا الفيلم هو مشهد المواجهة بين الابن وأمه عندما يطلب منها أن ترتدي الحجاب وتهتدي إلى طريق الله، وكذلك يطلب منها عدم الخروج إلى العمل لأن ذلك يتنافى مع القرآن ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب، 33]، وأنها إذا لم تمتثل لتعاليم القرآن فإنها تعد كافرة. وهذا المستوى من الفهم الخاطئ الذي وصل إليه الابن سببه التعاليم التي تلقاها من شيخ الجامع الذي كان يحدثه وزملاءه عن فتنة النساء الفاسقات، المتبرجات، العاريات الكاسيات، المخالفات لتعاليم الله، والخارجات عن الدين، وأنهن السبب في الخيالات التي كان يراها الفتى في منامه ورغبته الجنسية التي بدأت تنمو فيه. الفيلم ينتهي بجريمة قتل الفتى لامه بعد أن تصاعدت نزعة الشك في داخله تجاه كل النساء ومنهن أمه التي اعتقد بأنها على علاقة غير شرعية مع مدرسه.

الأخوة في نظر رجال الدين:

بعض رجال الدين، وربما أكثرهم، لا يعترفون بالأخوّة بين البشر ما دام هناك تعدد في الأديان واختلاف في الآراء، وذلك لأنهم

يعتقدون بأن الأخوة مصدرها الإيمان أو بعبارة أدق الاتفاق بالإيمان، فإذا كنت تتفق معي في الإيمان فأنت أخي أما إذا كنت مختلفاً معي فأنت عدوي، ولا علاقة للأخوّة بالرحم أو بالنسب أو بالإنسانية، وهم يستشهدون بالآية القرآنية ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات، 10] لإثبات هذا الرأي، فالإخوة في نظرهم شرطها الإيمان، وأن (إنما) الواردة في الآية، وهي أداة حصر، تحصر الإخوة بين جماعة المؤمنين فقط ولا تتعداها إلى سواهم. وهم لا يكتفون بهذه الآية لإثارة العداء بين الشعوب أو بين أفراد المجتمع الواحد أو الأسرة الواحدة بل يستعينون بآية ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح، 29] لتمييز أنفسهم، باعتبارهم جماعة المؤمنين، عن غيرهم المخالفين لهم باعتبارهم جماعة الكافرين، ولعل هذا ما يفسر العداء الدائم والشجار المتواصل بين أفراد الأسرة الواحدة التي يختلف أفرادها في اعتقاداتهم وآرائهم، وعادة ما يكون الأفراد المتدينون هم زعماء العداوة وقادة الشجار في تلك الأسر.

يقول أحد رجال الدين في خطبة الجمعة بضرورة معاداة من يخالفونه في الفكر أو الرأي أو الاعتقاد، وهو يعترض على مقولة أن اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية، فهو يقول في خطبته: «بعضهم ينقل قطعة من بيت شعر جاء فيه (اختلاف الرأي لا يفسد للحب قضية» وهذا غير صحيح لأن المراد من اختلاف الرأي هو اختلاف الهدف.. وإذا كان هدفه غير هدفي كيف أحبه؟.. وإذا كان هدفه غير هدفك فكيف تحبه؟.. وأنا اعلم أن هدفي حق وهدفه باطل.. هدفي أخروي وهدفه دنيوي.. هدفه وضيع وهدفي رفيع بإذن الله وبتوفيق الله، فكيف أحبه؟.. وإنما لا بد من الشعور فيه في مثل هذه الحالة أنه ليس لي باخ بل هو لي عدو.. ونحن قوم وهم قوم.. كما قلت في بعض الخطب السابقة.. وإن كنا نعيش معاً في مكان واحد ولعله تحت سقف واحد.. وهو أيضاً ليس لي بأخ حتى ولو كان أخاً لي في

النسب.. فهو ليس لي بأخ في الإيمان.. ولذلك قيل في الحكمة كن فيهم ولا تكن منهم.. كيف وهم لا يتفقون معي بالإيمان الذي هو الحد الحق للإخوة في الإسلام؟».

هذا هو اعتقاد بعض رجال الدين، ومن مختلف الديانات، أنهم يرون في أنفسهم الحق والهداية والتوفيق الإلهي، وينسبون لغيرهم الباطل والضلال والغضب الإلهي لمجرد أنهم لا يتفقون معهم في الرأي. إن التفكير الثنائي الذي يقسم العالم والناس والقضايا إلى ثنائية الحق والباطل، والخير والشر، والصالح والطالح إلى غير ذلك من الثنائيات، هو الذي يسيطر على تفكير رجال الدين ويجعلهم يحملون العداء للآخر المخالف، ولو كانوا يعتقدون بوجود الوسط بين هذه الثنائيات وبإمكانية أن يكون الحق مع غيرهم، أو على أقل تقدير أمكانية التعايش مع الآخر المخالف، لاستطاعوا أن يحثوا على الإخوة بين جميع الناس بغض النظر عن معتقداتهم وإيمانهم وأفكارهم وآرائهم.

مقاطعة المجاهرات بالفسق:

تُستغل قضية الحجاب مثل غيرها من القضايا، في تحريض المسلمين ضد بعضهم البعض، فهذا رجل دين يستغل قضية الحجاب التي يصفها بأنها (أعظم وأهم وأشمل مشكلة من مشاكل المجتمع ومشاكل العصر) للتحريض ضد غير المحجبات ويوصي بمقاطعتهن وعدم التعامل معهن والإساءة إليهن وجواز غيبتهن لأنهن من المجاهرات بالفسق، فهو يقول في خطبة الجمعة وبحضور المئات من المسلمين: «المتجاهر بالفسق هو ذلك الفرد الذي لا يكون عنده مانع أن يعمل المحرم أمام الناس... ونتيجته أنه بريء من الله ورسولِهِ وكذلك فان الله ورسولهُ بريئان منه، وأنه متجه إلى الشيطان ومعرض عن الرحمن، وانه يقيناً من أهل النار». ثم يضيف بعد أن شحن

الأذهان ضد المتجاهر بالفسق: «ومن تطبيقات ذلك السافرة، فإنها لا مانع لديها من التجول في المجتمع بزيها المكشوف المثير، فتكون متجاهرة بالفسق وظاهرة في المعصية، وكل السافرات متجاهرات بالفسق بطبيعة الحال لا استثني منهم واحدة. ومن الواضح لدى المتشرعة أن المتجاهر بالفسق لا ذمة له في الإسلام، لذلك تجوز غيبته، ويجب ردعه، وتجب مقاطعته، ويقشعر البدن من مجرد تذكره أو رؤيته. وعملياً الآن في مجتمعاتنا تكون المرأة سافرة، متجاهرة بالفسق، ومع ذلك نحبها ونصلها ونتعامل معها وننفعها ونعتبرها زميلة لنا في دراسة أو تجارة أو أية مصلحة. والعتب في ذلك على النساء المحجبات أكثر من الرجال... فقد تكون المرأة محجبة نسبياً ولكن لا مانع لديها من مزاملة السافرة والعمل معها ومصادقتها، فهي لا تأمرها بالمعروف ولا تنهاها عن المنكر ولا تشير إليها بشيء يشينها أو يؤذيها، فضلاً عن أن تقاطعها أو أن تبتعد عنها، وليس هذا هو المتوقع من المحجبة، وإن فعلت المحجبة ذلك فقد أحبت الحرام ويكون عقابها في الآخرة نفس عقاب السافرة، لأن المرء يحشر مع من أحب، وقد أحبت السافرة، إذن تحشر مع السافرة).

وهذا النوع من الخطب كما هو واضح، يتخذ من التحريض منهجاً له ولا يتورع عن إشاعة روح العداء والضغينة بين الناس لمجرد اختلافهم في القناعات، دون أن يراعي مصلحة المجتمع، ودون أن يراعي أية قيمة إنسانية يمكنها أن تجمع الناس وتؤلف بين قلوبهم، حتى ولو كانوا من أبناء دينٍ واحد. وقد كنت ممن شهد نتائج هذه الخطبة التحريضية التي شاعت بين الناس كثيراً خصوصاً في المؤسسات الرسمية التي كان ينتشر فيها الاختلاط والسفور (على حد تعبير صاحب الخطبة) ومنها المؤسسات التعليمية. ففي الجامعات تحولت الصداقات إلى عداوات، فقد تشاجرت الطالبة المحجبة مع

زميلتها غير المحجبة. والطلاب الذين كانوا يعتبرون جميع الطالبات زميلات لهم دون النظر إلى كونهن محجبات أم لا، أصبحوا ممن يرفعون شعار المقاطعة وينظرون إلى غير المحجبة بعين الازدراء والتحقير. وإذا أرادت الطالبة غير المحجبة استعارة محاضرة أو كتاب من زميل أو زميلة محجبة لها فإنها لا تجد سوى الصد والنكران. أما من لم يستجب لدعوى المقاطعة فقد تعرض هو إلى المقاطعة، واتهم بالتآمر على الدين لأنه ليس من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر. باختصار تحولت الجامعة، وغيرها من المؤسسات، إلى مكان للصراعات والمنازعات والشتائم والاتهامات بالفسق والفجور والخروج عن الدين إلى غير ذلك، كل هذا بفضل الخطبة التحريضية لرجل الدين المحتكر للحقيقة وصاحب الطباع العدوانية.

أحذروا من تدين الأبناء:

لعل على الآباء اليوم أن يراقبوا أبناءهم الذين يترددون على الجوامع ويحرصون على متابعتهم والتعرف على أفكارهم أكثر من سواهم من الأبناء. فبعض الجوامع أصبح يحرض الأبناء على الآباء والأمهات بحجة أنهم مخالفون لتعاليم الدين وان لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. وكثيراً ما نجد الأبناء المتدينين يعانون من سوء التكيف الاجتماعي، فهم انطوائيون وانعزاليون، هذا إذا لم يكونوا عنيفين وعدوانيين. لذلك ليس على الآباء أن يخشوا على أبنائهم غير المتدينين بقدر خشيتهم على أبنائهم المتدينين، فالتدين أصبح وسيلة لشحن الشباب بمفاهيم العدوانية والتفرد واحتكار الحقيقة، وكذلك شحنهم بمجموعة من الأفكار غير الواقعية وربما الخيالية والأسطورية.
إن التدين، في كثير من حالاته وصوره الشائعة في مجتمعاتنا اليوم، يحول الشاب إلى مريض نفسي لا يستطيع التكيف مع مجتمعه، ويكره الجميع حتى نفسه.

على الآباء أن يتابعوا مراحل تدين أبنائهم بنفس الخوف والخشية التي يتابعون بها مراحل انحراف أبنائهم، فلم يعد هناك الكثير من الفرق، فكلاهما المتدين والمنحرف سواء، لأنهما فقدا القدرة على التكيف الاجتماعي. ولعل الكثير من صور التدين اليوم تمثل انحرافاً سلوكياً، لذلك علينا أن نميز بين الملتزم بأخلاق الدين والملتزم بتعاليم رجال الدين. وهذا ما على الآباء متابعته، إذ عليهم ألا يفرحوا كثيراً إذا ما تردد أبناؤهم على الجوامع، فلربما كانت هذه الجوامع بؤرة للتحريض على العنف، وربما كان القائمون عليها من أولئك الذين يدعون لأنفسهم احتكار الحقيقة والذين يصفون الآخرين بالفسق والفجور وربما الكفر أيضاً. على الآباء أن يختارون لأبنائهم الجامع المناسب مثلما يختارون لهم المدرسة المناسبة، ويختارون لهم رجل الدين المتسامح مثلما يختارون لهم المعلم الحريص المثابر، فالمدرسة الفاشلة تخرج أبناءً فاشلين والجامع المتطرف يخرج إرهابيين قتلة.

لعل تدين الشباب أصبح خطراً على الأوطان، مثل طيش الشباب، فكلاهما انحراف، ولكن ربما الطيش يزول مع تقدم العمر أما التدين الخاطئ فيتعمق بالنفس ويتجذر يوماً بعد يوم، وربما يجعل من صاحبه داعية للعنف والتطرف والإرهاب، كما أن ما تفعله الجوامع التحريضية من إفساد للعلاقات الأسرية والاجتماعية والإنسانية التي من المفترض أن تكون قائمة على التسامح وتقبل الآخر، تعد أكثر خطراً من كثير من الحروب التي تشنها البلدان ضد بعضها.

تدين الأصحاء وتدين المرضى

قصة واقعية:

لماذا يتحول بعض الناس إلى التدين بصورة مفاجئة ودون أي مقدمات؟ أعرف شاباً هوايته الرقص، أينما أقيمت حفلة زفاف أو ميلاد كان هو أول الحاضرين حتى ولو لم تكن له علاقة بأصحاب الحفل، وكان يرقص بحماسة وإتقان شديدين يحسد عليهما. وصادف في هذه الفترة أن ظهر رجل دين، دعا الشباب إلى تقوى الله وترك معصيته، تجمع حوله الشباب وأصبح لأتباعه مكانة بين الناس، وكان من بين هؤلاء الذين اتبعوه صاحبنا الراقص. فقد انقلب انقلاباً عجيباً، فتراه يطلق لحيته ويقصر من شعر رأسه ويبدل بنطلون الجينز الضيق بدشداشة بيضاء ناصعة، وبدل الميدالية كان يحمل مسبحة. . سبحان مغير الأحوال.

حال صاحبنا هذا لا يختلف عن حال الكثير من الناس الذين ينقلبون بين ليلة وضحاها من النقيض إلى النقيض. نحن لا ننكر أن الله يهدي من يشاء، ولا نريد أن نحاسب الناس على نياتهم، ولكننا نريد فقط التمييز بين صنفين من التدين هما: تدين البحث عن الحقيقة وتدين غسيل السمعة.

تدين غسيل السمعة:

لقد ميز وليم جيمس بين ما يسميه تدين الأصحاء عقلياً ونفسياً

وتدين المرضى. والتدين المفاجئ الذي يحدث لدى البعض هو في نظرنا من نوع التدين المرضي. وأحد دوافع التدين المرضي هو محاولة تجميل الصورة التي عُرف بها الشخص. هذا النوع من التدين يدعى تدين غسيل السمعة، والذي هو (محاولة تطهير سمعة شخص ما من الشوائب وربما الفضائح التي لطخت اسمه، ليطل علينا حاملاً بين يديه «سمعة نيو لوك»). وأسهل طريقين لغسيل السمعة الملوثة، هما: (الانخراط في العمل السياسي والتمسح بأهداب الدين)، ويكون الغسيل أكثر فعالية في حالة اجتماع الدين بالسياسة، والقصص عديدة بخصوص صحة هذا الكلام، ولا أغالي إذا قلت إن كل قارئ يحمل في ذاكرته أمثلة واقعية كثيرة.

صِدق التدين المفاجئ:

عندما نتحدث عن غسيل السمعة كأحد دوافع التدين لا نقصد الإساءة إلى من يتدينون لهذا الغرض، كلا، فهم غالباً ما يكونون صادقين في تدينهم، ينوون صادقين تغيير حياتهم من النقيض إلى النقيض، وهذا ما يؤكده علماء النفس والاجتماع، فهم يقولون: «غالباً ما يكون الشخص القاصد غسيل سمعته صادقاً، بمعنى الانتقال بين النقيضين بالصدق». كما يؤكدون «أن البعض يتحول من الشيء إلى نقيضه، تكفيراً عن ذنوبه واعتقاداً منه بأن ذلك يمحو تاريخه سيئ السمعة». ولغرض التوسع في هذا الموضوع بإمكان القارئ الرجوع إلى مجلة (روز اليوسف) في عددها (4071) الصادر بتاريخ (6/ 2006) والذي أخذنا منه بعض العبارات، وهي تلك الواردة بين قوسين.

الشباب ودورة التدين:

يبدأ بعض الشباب متعصباً متشدداً ولكنه يأخذ بفهم الدين والتدين بالتدريج حتى يتعلم السماحة والرحمة ومغفرة خطايا الآخرين،

ربما السبب في هذه البداية المتشددة يعود إلى حماسة الشباب ورغبتهم الشديدة في وجود حياة مثالية متكاملة وفقاً لتصوراتهم عن الجمال والكمال. فضلاً عن ذلك، فإن لمصدر التعليم الديني دوراً مهماً في هذا التشدد، فبعض الديانات أو المذاهب الدينية تمتاز تعاليمها أصلاً بنوع من التشدد أو أنها تحتوي على تعاليم توصي بالتسامح وأخرى توصي باستخدام الشدة تبعاً للحالة التي يريد الدين معالجتها، ولكن تركيز رجال الدين على المواضيع التي تقتضي التشدد قد يوحي للشاب أن جميع القضايا تحل بهذا الأسلوب.

اعتراف رجل دين:

رجال الدين الشباب غالباً ما يكونون متشددين، ويكون أثرهم على بقية الشباب أكثر تأثيراً من غيرهم. يقول خطيب أحد الجوامع في المملكة العربية السعودية: «كنت في سنواتي الأولى للخطابة، متشدداً جداً إلى الحد الذي قلت فيه وأنا على منبر الخطابة، إن من يسمح لزوجته أو ابنته أو أخته الجالسة إلى جواره في السيارة أن ترفع النقاب وتكشف عن وجهها فهو ديوث، ولكنني الآن أعلم أني كنت على خطأ، والفضل في معرفتي لأخطائي يعود إلى المعتدلين من رجال الدين الذين بينوا لي مواطن الخطأ بأسلوب متسامح».

دورة التدين في الأعمال الأدبية والسينمائية:

أشار العديد من الروايات والأفلام السينمائية والمسلسلات التلفزيونية إلى دورة التدين هذه التي تبدأ بالتشدد يتبعها نوع من الارتداد السلبي ثم تليه عودة معتدلة. ولعل من أبرز هؤلاء الكُتاب يوسف إدريس ونجيب محفوظ وإحسان عبدالقدوس، والتي تحول العديد من أعمالهم الأدبية إلى أفلام ومسلسلات. من السهل على القارئ أو المشاهد أن يجد نموذج الشاب المتدين الذي أطلق لحيته

وأكثر من الصلاة والتردد على الجوامع، والذي اعتزل أهله أو الذي اخشوشنت طباعه وتوترت علاقته بأسرته وأصدقائه، والذي يسعى إلى فرض آرائه على المحيطين به خصوصاً أخواته البنات، فهو يراقب حركاتهن وسكناتهن ويحاسبهن على ملابسهن وما يستمعن إليه من غناء أو يشاهدنه من أفلام ومسلسلات والتي تعتبر في نظره من المحرمات. وربما يصل الأمر به إلى الوقوع في براثن جماعة متطرفة تريد ضمه إليها والانتفاع من حماسته وتدينه، والتي إما أن تجرفه في دروب العنف والتعصب والجريمة العقائدية أو يحالفه الحظ وتسعفه فطرته وتربيته المتسامحة وظروفه الاجتماعية والاقتصادية على الإفلات من قبضتهم والنجاة بإنسانيته.

التدين والتكيف الاجتماعي:

إن هذه الروايات أو الأفلام والمسلسلات تشير صراحة إلى فقدان الشاب المتدين لقدرته على التكيف الاجتماعي في نطاق أسرته ومجتمعه. ولعل الكثير من القراء الآن يتذكرون بداية تدينهم وما صاحبها من أحداث اتسمت بالتشدد وأحياناً العنف وربما اتجاه اقرب الناس لهم. إنهم يفعلون ذلك ضانين أنهم يتقربون إلى الله به، ولكنهم وبعد صراع شديد مع النفس والواقع الاجتماعي المحيط بهم يجدون أن الاعتدال وحسن التعامل والتغاضي عن بعض الأخطاء هو السبيل الوحيد الذي يمكنهم من التعايش السلمي مع الآخر المخالف لهم.

إن ما ينتاب الشباب في بداية مراحل تدينهم يتمثل بفقدان القدرة على التكيف الاجتماعي، لذلك أرى ان من واجب رجال الدين أو الدعاة إلى التدين أن يلتفتوا إلى هذا الموضوع المهم، ويؤكدون عليه في خطبهم ومواعظهم، ولعل البعض منهم بدأ بالقيام بذلك فعلاً.

حوار في الدين والتدين

حوار بين الشباب:

لم يستغرق حوار الشباب الجامعيين الأربعة، وأنا خامسهم، أكثر من عشرين دقيقة وهي المسافة التي تحتاجها السيارة التي تقلنا من الجامعة إلى منزلي، حيث كنت أول من يصل، ثم يُكمل الآخرون طريقهم. خلال هذا الوقت القصير دار حوار بين الشباب حول ثلاثة مواضيع ساخنة، عادة ما يهتم بها الشباب في مثل هذه السن، والتي ترتبط جميعها بالدين، وهي: الغناء، هل هو حلال أم حرام؟.. رجال الدين، هل هم مقدسون؟.. وأخيراً، العرب المسلمون، هل هم خير الناس؟ هذه الأسئلة الثلاثة المتنازع فيها منذ قرون، أراد الشباب بحماستهم أن يناقشوها ويجدوا لها حلولاً، وعلى من يحمل منهم الإجابة الخاطئة أن يعترف بخطأه ويغير من سلوكه، كل هذا في عشرين دقيقة.

كنت سعيداً جداً بالاستماع إليهم، مع عدم مشاركتي، فلم أرغب بأن يفوتني شيء من حوارهم، كما لم أرغب بان أُعيق انطلاقتهم، كما تعوّد الكبار أن يفعلوا، لا رغبةً منهم بنقل الحقيقة، بل لتحقيق الذات كما أظن. بدأ الحوار عندما تحدث احدهم عن لقاء تلفزيوني مع مغنٍ مشهور، قائلاً: «لقد أذهلني هذا المغني، ففي كل موضوع من مواضيع حواره كان يستشهد بأقوال الشخصيات الدينية التاريخية المرموقة، تخيلوا أنه ذكر أكثر من ثمانية أقوال مأثورة لعلي بن أبي طالب، أما

نحن فلا نكاد نحفظ إلا النزر القليل». كانت هذه هي العبارة التي أشعلت فتيل الحوار.

لم يستطع زميله الجالس إلى يمينه في المقعد الخلفي إن يتغاضى عن هذا الخبر، فقال: «يا له من تناقض غريب، مغنٍ يتحدث بأقوال الصالحين، أما علم هذا المغني أن الغناء حرام، وهو عند الله أشد من الزنا؟». انتقلت حمى الحوار إلى الشاب الجالس بجواري، والذي كان يقود سيارة البيجو الصغيرة، فصاح: «الله أكبر.. كل شيء لديكم حرام. من قال إن الغناء حرام؟ أنا لا أستطيع أن أفوت يوماً من حياتي دون غناء». وامتدت يده إلى المسجل ليغلقه بعد أن كان صوت عذب لمغنية يصدح داخل السيارة، وأضاف: «هذا لكي أتفرغ لخوض غمار الحديث».

قال الشاب الرابع، الذي شغل الجزء الأيسر من المقعد الخلفي: «لماذا تحرمون الغناء؟ ولماذا تجعلونه أشد من الزنا؟ ما علاقة الغناء بالزنا؟». كان السائق ينتقل ببصره بين الطريق وبين زملائه الثلاثة في المقعد الخلفي، وعندما سمع تعليق زميله حول علاقة الزنا بالغناء، وجد من المناسب أن يضيف: «لو كان الغناء أشد إثماً من الزنا لزنيت كل يوم، فأنا أتحمل إثم الغناء يومياً، فما هو المانع في أن أضيف ذنباً أقل إثماً وأكثر متعة؟».

الذي أشعل فتيل الحديث آثر الصمت، وكان ينظر إليّ وكأنه يدعوني للتدخل، ولكني تغاضيت عن هذه الدعوة، فسماع الحوار كان بالنسبة إليّ أكثر متعة وأهمية من المشاركة فيه. قال الداعي لحرمة الغناء: «إن الآيات والأحاديث تؤكد حرمة الغناء وأن العلماء يقولون إنه اشد من الزنا. هل تشكون في قول العلماء؟». هذا التساؤل دفع بزميله الجالس إلى اليسار الإجابة: «نعم نشك.. فما يقوله شيخ الفضائيات الذي يطل علينا كل مساء يثير فينا الشك». هكذا انتقل الحديث، ودون سابق إنذار إلى موضوع قدسية رجال الدين.

رد السائق، الذي هو من أشد المدافعين عن حلية الغناء، قائلاً: «رجاء.. كل شيء إلا هذا الشيخ فهو من المحببين إلى قلبي.. إن كلامه يعجبني جداً». وعندئذ رد عليه زميله: «ولكنه يحرم الغناء الذي تعشقه». فلم نسمع جواباً، وساد الصمت للحظة، عاد بعده الحوار أشد مما كان. وبدأت هذه العودة بمقولة مُشعل فتيل الحوار: «إن هذا الشيخ يملك أسلوبًا جميلاً، لكنه غبي، ينقل الروايات والأحاديث دون أن يفكر فيها». فرد الجالس في اليمين: «لا تقل إنه غبي.. إنه أفضل منك ومن مطربيك). عندئذ علمت أن الحديث انتقل من موضوع النقاش إلى ذات المناقش، وهو ما يميز معظم النقاشات العربية.

لم يستطع صاحب اليسار الصمت فصاح: «إحترم نفسك.. إن شيخك هذا ليس أفضل منا.. بل هو الذي أرجعنا إلى الوراء.. إنه سبب تخلفنا». أجاب صاحب اليمين بصراخ أعلى من صاحب اليسار: «ما به حالنا.. إننا خير أمة أخرجت للناس». هكذا انتقل الحديث إلى الموضوع الثالث، دون سابق إنذار أيضاً. فأجاب الجالس في الوسط، وهو مستمتع باستمرار اشتعال الحديث الذي بدأه: «أية أمة هذه التي تتحدث عنها؟ إن حالنا هو أسوأ حال.. إننا أسوأ الأمم الآن.. أما مقولة خير الأمم فهي عندما كنا في بداية الإسلام».

كنت قد وصلت إلى منزلي، وأصبح علي النزول، ورأيت في عيونهم رغبة في سماع رأيي، أو هكذا خُيل إلي. ولم أشأ أن أخوض في تفاصيل الحديث وفي نفس الوقت رغبت بإرضائهم، لذلك اكتفيت بذكر صفتين أرى ضرورة توافرهما في كل حوار، فقلت لهم: «كم أسعدني حواركم، وترفعكم عن أحاديث القيل والقال السائدة بين الناس، ولكن في ودي الإشارة إلى نقطتين: الأولى، مهما تحاورتم واختلفتم فلا يبغض أحدكم الآخر، أما الثانية فلا تدّعي لنفسك احتكار الحقيقة، بل قل إني أملكها وربما يملكها غيري أيضاً». وعندها ترجلت من السيارة وودعتهم، وتساؤل كبير يدور في ذهني: ما

هي المواضيع الأخرى التي سوف يتحدثون فيها؟

طبيعة الحوار:

لعل القارئ يلاحظ عدداً من السمات أو الخصائص التي تميز الحوار السابق، وهو حوار حقيقي نقلته لكم كما حدث. ومن أبرز هذه السمات:

1 ـ إنه حوار لا يعتمد على الدراسة والبحث والتقصي، أو بعبارة أكثر دقة إنه حوار يصدر عن شباب لم يجربوا متعة القراءة والاكتشاف، على الرغم من كونهم طلاباً جامعيين.

2 ـ إنه حوار غير منظم، وهذا ما يميز أكثر حواراتنا اليومية، فهو ينتقل من موضوع إلى آخر دون أن يكون هناك غاية يسعى إليها المتحاورون.

3 ـ إنه حوار ينتقل دائماً من موضوع النقاش إلى ذات المناقش، فالسباب والشتائم والاتهامات سمة لا يكاد يخلو منها نقاش إسلامي في عالمنا العربي تقريباً.

4 ـ إنه حوار يقوم على مبدأ المقدس، سواء كان نصاً مقدساً أو شخصاً مقدساً، وليس على مبدأ العقل والمصلحة. فالمنطلق الأول الذي تبنى عليه معظم النقاشات هو النص الذي لا يجوز الاجتهاد فيه أو مخالفته، ويضاف إلى هذا النص المقدس رجل الدين المقدس الذي لا يجوز الطعن في معرفته أو نياته.

5 ـ إنه حوار يستند إلى الماضي وأمجاده الغابرة، دون أن يعتمد على ما نحن فيه من تخلف أو تراجع، فنادراً ما نجد صوتاً دينياً يطالبنا ببحث شؤون حاضرنا والتطلع إلى مستقبل أفضل.

هذه هي بعض السمات التي أردنا أن نبينها للقارئ، وهي سمات نعتقد بأنها تميز معظم نقاشات العالمين العربي والإسلامي.

القسم الرابع
الفتوى والمرأة الإنسان



رجال الدين والفتوى

الفتوى ومنطق العقل والمصلحة:

كثيراً ما يعتمد رجال الدين في إصدار فتاواهم على الدليل النقلي المتمثل بالنص الديني، ولا يلتفتون كثيراً إلى الدليل العقلي إلا في حالة تعرّض الفتوى إلى الانتقاد، وذلك لأنهم يعتبرون النص حجة على الناس من دون العقل. وعادة ما نجد أن الذي يحرك الفتوى هو النص، وإذا غاب النص غابت الفتوى، وهذا ما يظهر بشكل واضح في المجتمعات الإسلامية التي يعمل فيها رجال الدين على تفعيل بعض النصوص غير المجدية بشكل فتاوى وإهمال العديد من القضايا المهمة والخطيرة لمجرد عدم وجود نص يتعلق بها. هذا الواقع المزري لطبيعة الفتاوى في المجتمعات المسلمة يدفعنا للقول إن منطق المصلحة يجب أن يكون هو السائد، فالفتوى التي لا تخدم المجتمع ينبغي أن يضرب بها عرض الجدار، أما تلك التي تخدم المجتمع فيجب النظر فيها بمنطق العقل والمصلحة لا بمنطق الولاء والطاعة، بمعنى أن الاستجابة لها لا تكون لمجرد كونها صادرة من رجل الدين الذي من المفترض علينا طاعته، بل لكونها تؤدي دوراً إيجابياً في المجتمع.

فتاوى الدليل النقلي:

هناك عدد من الفتاوى التي اعتمد فيها رجال الدين على الدليل النقلي دون الدليل العقلي، وقد اخترنا بعضاً من هذه الفتاوى لتكون

مثالاً توضيحاً لما نقصده فقط، أما حصر وجمع هذه الفتاوى فربما يحتاج إلى مجلد كبير أو عدد من المجلدات:

1 - حرمة نقل الأعضاء: يرى بعض رجال الدين عدم جواز نقل الأعضاء سواء من الأحياء أو الأموات إلى المحتاجين لها، وهم يعتمدون في ذلك على عدد من الأحاديث والمرويات. ويحكى أن أحد رجال الدين كان مصاباً بالفشل الكلوي ومع ذلك رأى عدم شريعة نقل الأعضاء، ورغم المحاولات العديدة لإقناعه بضرورة نقل الأعضاء وانه سيستفيد منها إلا أنه رفض حتى تدهورت حالته الصحية بشكل كبير وقد أصر على موقفه حتى وافاه الأجل.

2 - فتوى تحريم التماثيل: يرى بعض رجال الدين (إن الذين يصنعون التماثيل، سواء بغرض استخدامها في تزيين البيوت أو غيرها، يُعذبون يوم القيامة ويقال لهم: أحيوا ما خلقتم). لقد نتج عن هذه الفتوة أن حملت امرأة بسيطة فأساً واقتحمت منزل النحات المصري حسن حشمت وحطمت بعض الأعمال الخزفية في الحديقة، وحين سُئلت عن الدافع قالت إنها «استندت إلى الفتوى التي تحرم اقتناء التماثيل في البيوت».

3 - حرمة حلق اللحية: هذه الفتوى تجمع عليها تقريباً كل المذاهب الإسلامية بطائفتيها السنية والشيعية والتي ليس لها، في ما نعتقد، أي اثر إيجابي صحي أو اجتماعي أو اقتصادي، ولكن ربما لها أثر سياسي، فقد وظفت اللحية لتميز جماعات الإسلام السياسي عن غيرهم من الجماعات السياسية.

بالاعتماد على هذه الفتاوى نرى أن ليس من مصلحة المجتمع أن يعتمد أبناؤه على الفتاوى في مواجهة مشكلات المجتمع والنهوض بواقعه، وذلك لأن معظم الفتاوى كما ذكرنا مصدرها النص الديني وليس

الواقع الاجتماعي أو المصلحة العامة، بل إن بعضها، وربما غالبها، يتعارض مع مصلحة المجتمع، كما في الفتاوى المذكورة أعلاه.

ضرورة تفعيل منطق العقل والمصلحة:

في مقابل هذه الفتاوى التي تتعارض مع منطق العقل والمصلحة، نجد شبه إجماع من قبل رجال الدين على الصمت حول قضايا مهمة وذات آثار سلبية اجتماعية واقتصادية وصحية، نذكر منها قضيتين فقط هما:

1 ـ قضية انتشار التدخين، والتي لا يمكن مقارنة آثارها السلبية الاجتماعية والاقتصادية والصحية بآثار حلق اللحية ـ مثلاً ـ بأي حال من الأحوال، ومع ذلك نجد إصرار رجال الدين على حرمة حلق اللحية وجواز التدخين، وذلك ببساطة لوجود نص بخصوص الأول وغيابه في حالة الثاني. لذلك فالمجتمع لا يستطيع أن يقاوم ظاهرة انتشار التدخين بالاعتماد على النص الديني، أو على تدخل رجال الدين ومساندتهم له، بل على العقلاء أن يعتمدوا على منطق العقل والمصلحة اللذين يقتضيان أن يبتعد المرء عن التدخين للحفاظ على الصحة والمال سواء قبل رجال الدين بذلك أو لم يقبلوا، وهذا هو الأساس الذي أُنشئت عليه منظمات مكافحة التدخين في أكثر دول العالم. ومن الجدير بالذكر، أننا هنا لا ندعو لتدخل رجال الدين بقضية التدخين، ولا نطالبهم بفتوى تحريمها، ولكننا نطالبهم بتفعيل دور العقل وتغليب منطق المصلحة بعيداً عن النص، حتى يتسنى للناس أن يدرسوا واقعهم بعقولهم وبما يستجيب مع مصالحهم، لا بعقول غيرهم وبمنطق النص الذي لا يجوز مخالفته تحت ذريعة أنه لا اجتهاد مقابل النص.

2 - قضية تحديد النسل، من القضايا المهمة الأخرى، التي كان ولا يزال لها أثر كبير في بعض المجتمعات المسلمة، مثل المجتمع المصري، والتي لعب منطق العقل والمصلحة الدور الأساس في حلها، والتي استجاب لها الناس وفقاً لهذا المنطق، على الرغم من معارضة غالب رجال الدين لها، فالضائقة الاقتصادية وصعوبة تلبية احتياجات العائلة الكبيرة دفع الناس إلى الاكتفاء بأسرة قليلة العدد. هذا المثال، وغيره الكثير، يؤكد الدور المهم لتفعيل منطق العقل والمصلحة في حل القضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها بعيداً عن منطق الفتاوى المعتمدة على النص.

ومن الجدير بالذكر أننا اليوم، وفي وضعنا الراهن، لا نستطيع أن نغفل دور الفتوى، ولكن من المهم جداً أن نجد بديلاً لها، والمتمثل في نظرنا بتفعيل منطق العقل والمصلحة، لأن الفتاوى لا تكون مجدية في كل القضايا، ولأنها لا تكون صائبة في كل الأحيان، وإلى أن نصل إلى اعتماد منطق العقل والمصلحة في جميع قضايانا، علينا أن نكون حذرين جداً من تأثير الفتاوى غير المسؤولة في المجتمع.

الفتاوى الجنسية

مكانة الجنس في التفكير الديني:

يحتل الجنس موقعاً متفرداً ويتخذ مساحة واسعة في الديانات كافة، ولعله في الديانات السماوية الثلاث يحتل مكانة متميزة، سواء بعدد النصوص المتعلقة بالجنس الواردة فيها أو باهتمام رجال الدين المنتمين إليها، ولكن يمكن القول إن رجال الدين في الديانتين اليهودية والمسيحية استطاعوا أن يهذبوا هذه النصوص ويوظفوها لما يخدم مصلحة المجتمع، على الرغم من بقاء بعض الرواسب التي ما زالت تثير المشاكل بين فترة وأخرى، أما رجال الدين المسلمين فقد بالغوا كثيراً بشأن الجنس وتشددوا فيه وضخموا دور النصوص وجروها في كثير من الأحيان إلى غير معناها، ولعل هذا التشدد في قضية الجنس لدى المسلمين يعود بالأساس إلى الطبيعة البدوية التي نشأ فيها الفقهاء والمفسرين للنصوص في المراحل المبكرة من نشأة الإسلام، وما لحقه من هيمنة الإسلام البدوي القادم من دول الخليج في العصر الحالي.

ولعلنا لا نغالي إذا قلنا، إن رجال الدين المسلمين يهتمون بقضايا الجنس أكثر من أي قضية أخرى، وهذا ما يظهر بشكل جلي بعدد الفتاوى المرتبطة بالجنس، والتي تعرف بالفتاوى الجنسية، مقارنة بغيرها من الفتاوى المرتبطة بشؤون الحياة المختلفة. هذه الفتاوى الجنسية تدخل كل يوم إلى كل بيت عبر وسائل الإعلام المختلفة وخصوصاً الفضائيات والانترنيت والصحف والمجلات، فضلاً عن

الجوامع والمراكز الدينية الأخرى، وهي تلعب دوراً في قولبة العقل الإسلامي بطريقة جعلت المسلمين يتحرجون من قضايا الجنس ولا يتحدثون فيه على الرغم من كثرة المشاكل المرتبطة به. ومعظم الفتاوى التي تصدر لا تزيد الأمر إلا تعقيداً، فهي تنطلق من واقع تحجيم مساحة الجنس في الحياة الاجتماعية، وزيادة عدد المحظورات ابتداءً من عدم جواز النظر إلى ما حرم الله مروراً بحرمة الاختلاط والحديث مع النساء لغاية عدم جواز مصافحة النساء وغير ذلك الكثير من المواضيع التي شغلت أذهان المسلمين، خصوصاً الشباب منهم، وجعلتهم حبيسي سجن الخيالات الجنسية المريضة.

على العموم، فالجنس في عقول المتدينين، خصوصاً المسلمين، يرتبط بالإثم والخطيئة والغواية والشيطان، وأكثر الروايات الدينية الواردة في الكتب الدينية الثلاثة (التوراة والإنجيل والقرآن) تصب في هذه المفاهيم عن الجنس. هذه التصورات جعلت من الجنس معضلة كبيرة تتفاقم جيلاً بعد جيل حتى أصبحت من الأخطار التي تهدد المجتمعات بالانفجار والانفلات، فكثرة القيود الموضوعة في المجتمعات الإسلامية، مثلاً، دفعت بعدد من الشباب المسلم إلى رمي فتاوى رجال الدين خلف ظهورهم لأنها لا توفر لهم حلولاً ناجعة ومنطقية لمشكلاتهم الجنسية، فعبارات من مثل الصبر والتعفف وغض البصر، التي يتحفنا بها رجال الدين في كل مناسبة، لم تعد مجدية في ظل الانفتاح الإعلامي الهائل على كافة مجتمعات العالم والتي يمتاز غالبها بالانفتاح في قضايا الجنس.

سياحة في عالم الفتاوى الجنسية:

إن نظرة سريعة على بعض الفتاوى والآراء الصادرة بخصوص القضايا الجنسية وطبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة والتي تتناقلها

وسائل الإعلام المختلفة يومياً وتمتلئ بها بطون الكتب الدينية، يمكنها أن تلقي الضوء على حجم التخلف والتأخر الكبيرين الذي تعاني منه المجتمعات الإسلامية، وإلى حجم المشكلة التي يعاني منها الشباب، خصوصاً مع عدم إمكانية الزواج التقليدي بسبب الأوضاع الاقتصادية المتردية وانتشار البطالة.

تمتاز الفتاوى الجنسية بصورة عامة بسطحية التفكير وتقيدها بحدود النص، وهما السمتان اللتان تمتاز بهما منتجات سوق الفتوى بشكل عام، ولكن الفتوى الجنسية تمتاز بصفة أخرى هي الهاجس المرضي من انتشار الفحشاء في المجتمعات المسلمة مع الإصرار على المؤامرة التي يحيكها الغرب ضد المسلمين. وفي ما يلي بعض الفتاوى التي أثارت ضجة في الأوساط الإعلامية المختلفة والتي اعتمد فيها أصحابها على الدليل النقلي دون الدليل العقلي:

1 - فتوى رضاعة الكبير: صرح أحد أستاذة الحديث بكلية أصول الدين في جامعة الأزهر بأن إرضاع الزميلة لزميلها في العمل يعطي غطاء شرعياً لما يسمى بالخلوة الشرعية نظراً لأنها بعد إرضاعه ستصبح أماً له من الرضاعة. وقال إنه يستند في فتواه إلى واقعة سالم مولى أبي حذيفة، وهو كان ابناً بالتبني لأبي حذيفة، وعندما حرم القرآن التبني طلب الرسول من الأم أن ترضع ابنها بالتبني حتى يمكنه الدخول عليها وهي أرضعته بالفعل لأنه كان في مكان وعمر ابنها وكان يناديها قائلاً يا أمي. وقد تعرضت هذه الفتوى إلى كثير من الانتقاد، وأصبحت موضوعاً خصباً لرسامي الكاريكاتور، ولكن الأستاذ دافع عن فتواه بضراوة، قبل أن يعتذر عنها، وقال إن فتواه مسندة للإمامين البخاري ومسلم وأن الموظفة في حالة إرضاع زميلها يمكنها أن تخلع الحجاب أمامه. وهذا يعني أن كل سكرتيرة

عليها أن ترضع رئيسها في العمل، لأنهما في خلوة في كثير من الأحيان!! من الجدير بالذكر، أن عدم واقعية الفتوى يتمثل بعدد من الأسباب أبرزها، كيف يمكن لشخص بالغ أن يرضع من امرأة تماثله في العمر دون أن يكون للموضوع بعد جنسي؟

2 ـ حرمة خلع الملابس أثناء المعاشرة الزوجية: من الفتاوى الجنسية الشهيرة الفتوى التي أصدرها أحد الأساتذة في جامعة الأزهر ثم تراجع عنها سريعاً ونفاها نفياً مؤكداً، حيث كان الرجل ضيفاً على أحد برامج الفتاوى في إحدى الفضائيات وسُئل عن حكم الشرع في خلع الزوجين لملابسهما أثناء المعاشرة الزوجية، فأجاب أن خلع الزوجين لملابسهما ليس حراماً فقط، لكنه أيضاً يوجب التفريق بينهما وبطلان عقد الزواج، واستند إلى عدة أحاديث تحرم المعاشرة الجنسية بين الزوجين إذا اقترنت بالنظر إلى الأعضاء التناسلية، كما تطرق إلى تقيد حرية التجرد من الملابس أثناء المعاشرة الجنسية بين الزوجين، والتي تستند إلى حديث شريف يقول إذا أتى أحدكم أهله فليستتر ولا يتجرد.

3 ـ فتوى ختان الإناث: رفض أحد شيوخ الأزهر قيام وزير الصحة في (1994) بمنع ختان الإناث وأعلن أن ختان الإناث من شعائر الإسلام ولا يجوز لأحد أن يمنعه، وتمسك الشيخ بموقفه، على الرغم من الدعوى القضائية التي رفعتها ضده المنظمة المصرية لحقوق الإنسان بمصر لإصداره فتوى تبيح ختان الإناث. ومن المعروف أن ختان الإناث في مصر والسودان واليمن وبعض الأقطار العربية الأخرى يشكل مشكلة كبيرة، إذ إن أكثر من حوال (40%) من الفتيات المصريات يتعرضن للختان، ويتعرض عدد منهن إلى الموت جراء هذا الفعل. كما أنه يسبب الكثير من المشاكل الجنسية للمرأة في حياتها الزوجية، لأنه يعيقها عن أداء المشاركة الجنسية الكاملة.

4 - عدم جواز الجلوس على كرسي كانت تجلس عليه امرأة: يرى بعض رجال الدين عدم جواز الجلوس على كرسي كانت تجلس عليه امرأة إلا بعد مدة من الزمن لا تقل عن خمس دقائق. وهم يستندون في فتواهم هذه إلى حديث يفيد هذا المعنى، ولا نعرف هل أن هذه الفتوى خضعت للعقل أم أن قائليها قاموا بدور الناقل للحديث فقط؟ فلا يمكن، في ظل الأوضاع الجديدة للمجتمعات الإسلامية، أن تعمل على تطبيق مثل هذه الفتوى غير الواقعية.

5 - حرمة مصافحة المرأة: يرى غالب رجال الدين عدم جواز مصافحة المرأة تحت أي ظرف، ويرى البعض جواز ذلك. وهناك صنف ثالث يتخذ موقفاً وسطاً، إذ يرى (أن المصافحة جائزة شرعاً، ولكن ليست على إطلاقها، فالمرأة إذا كانت شابة فتية غضة بضة وعلى قدر كبير من الجمال لا تجوز مصافحتها خوفاً من حدوث الفتنة والوقوع في المحظور، أما إذا كانت المرأة دميمة وخاصمها الجمال فلا ضرر من مصافحتها). ويسخر أحد الصحافيين من هذا الرأي بالقول: «يبدو أن عدم جواز مصافحة الجميلات يرجع إلى أن الفتنة نائمة في راحة أكفهن وأن الشيطان ساكن بين أناملهن أو تحت أظافرهن، أما الدميمات فيبدو من وجهة نظر الداعي أن الجمال لم يخاصمهن وحده، بل خاصمهن الشيطان أيضاً».

6 - حرمة نظر الشخص إلى أعضائه التناسلية: يرى عدد من رجال الدين المسلمين والمسيحيين أن نظر الشخص إلى أعضائه التناسلية يعمل على إثارة الشهوة. فالمسلمون يقولون إن علي بن أبي طالب لم ينظر طيلة حياته إلى أعضائه التناسلية. أما المسيحيون فقد كتب أحدهم قائلاً: «عندما تخلع ملابسك في

أثناء الاستحمام مثلاً كن عفيفاً في نظرك ولا تتطلع إلى أعضائك حتى في المرآة. . لأن هذا يثير الشهوات فيك».

فتاوى ما بعد التخلف:

هذه نماذج قليلة من الفتاوى الجنسية، والتي نلاحظ منها أن الهاجس الجنسي لدى رجال الدين هو المحرك لها، وليس المصلحة العامة أو الشريعة أو الدين، فقد لاحظنا أنها من القضايا المختلف فيها، ولكن ما يدفع رجال الدين إلى إصدارها هو العقل المريض الذي يهيمن عليهم ويدفعهم، ربما لا شعورياً، إلى إصدار مثل هذه الفتاوى التي يغلفونها بمقولات من مثل الحفاظ على تعاليم الإسلام أو العفة لدى المسلمين وغير ذلك، وكأن تعاليم الإسلام وعفة المسلمين تقف على مثل هذه الفتاوى الجوفاء. إن هذا النوع من الفتاوى يقود المجتمعات الإسلامية إلى مرحلة ما بعد التخلف بعد أن عاشت مرحلة التخلف كاملة، بينما يبحث الآخرون اليوم عن مرحلة ما بعد الحداثة، بعد أن عاشوا مرحلة الحداثة كاملة.

نزار قباني في الكتاتيب:

من بين القصائد الكثيرة التي كتبها الشاعر المفكر نزار قباني اخترنا قصيدة (الخرافة) من ديوانه (قصائد متوحشة) لتكون الخاتمة التي تلقي مزيداً من الضوء على مهزلة الفتاوى الجنسية التي شوهت وتشوه عقول صغارنا وشبابنا، والتي تصور كل شيء في المرأة على أنه عورة وكل ما يرتبط بها شر، وهذا الوضع الذي تحدث عنه الشاعر في زمن الكتاتيب لا يختلف عن وضعنا الحالي ونحن في بداية القرن الواحد والعشرين، زمن التقدم التكنولوجي وثورة المعلومات، ولعل الفتاوى التي ذكرناها أعلاه تبين حقيقة الوضع المتدهور لفتاوى الجنس في مجتمعاتنا الإسلامية.

حينَ كُنَّا.. في الكتاتيبِ صغارا
حَقنونا.. بسخيفِ القولِ.. ليلاً ونهارا
درَّسونا:
«رُكبَةُ المرأة عَورَه..»
«ضِحكةُ المرأة عَورَه..»
«صوتُها..
ـ من خلفِ ثُقب الباب ـ عَورَه»

***

خوَّفونا.. من عذاب الله إن نحن عشِقنا
هَدَّدونا.. بالسكاكين.. إذا نحنُ حَلُمنا..

***

شوَّهونا..
شوَّهوا الإحساسَ فينا والشُعُورا..
فصلوا أجسادَنا عنَّا..
عُصُوراً.. وعُصُورا..
صوَّروا الحبَّ لنا.. باباً خطيرا
لو فتحناهُ.. سقطنا ميّتين
فنشأنا ساذجين
نحسبُ المرأةَ.. شاةً أو بعيرا
ونرى العالَم.. جنساً وسريرا..



ثلاثة مواقف من المرأة الإنسان

المرأة بين رجال الدين وتجار الرقيق:

يتعامل رجال الدين مع المرأة بصورة عامة على أنها عورة، وعلى أنها مصدر الشهوة، وعلى أنها السبب في إغواء الرجل ووقوعه في الخطيئة والحرام، لذلك يجب أن تمنع المرأة من الاختلاط بالرجال ويجب أن تحجب عن الأنظار أما بمنعها من الخروج من البيت أو بتغليفها بالسواد من قمة رأسها إلى أخمص قدميها. مقابل هذه النظرة المتطرفة للمرأة من قبل رجال الدين، توجد نظرة أخرى متطرفة لمجموعة من تجار الرقيق الأبيض يرون في المرأة بضاعة من حق كل رجل أن يقتنيها ويستمتع بها ما دام قادراً على دفع الثمن، وهم يرون أن على المرأة ألا تمنع نفسها عن أي راغب ما دامت قادرة على تقديم المتعة له، وقد استخدم هؤلاء المرأة مصدراً للربح المالي، وجمعوا بواسطتها ثروات هائلة. ولو تمعنا في أفكار كلا الجانبين لوجدنا أنهما يتفقان على أن المرأة هي مصدر للشهوة وعلى أنها مجرد متاع ووعاء.

بين هاتين النظرتين المتطرفتين ضاع الاعتدال ولم يجد له مكاناً، فالقيم الإنسانية التي ينبغي لها أن تجمع أبناء الجنس البشري بأسره، ذكوراً وإناثاً، قد اندثرت ولم يبقَ منها إلا القشور التي يتشدق بها البعض من كلا الجانبين المتطرفين، فرجال الدين يدّعون أنهم يحترمون المرأة لكونها أماً وأختاً وزوجة. وتجار النساء يقولون إنهم يحترمون

المرأة لأنهم يعطونها حريتها في استخدام جسدها والانتفاع به، فهي حرة، ولم يقل أحد منهما (من الفريقين) أنه يحترم المرأة لكونها إنساناً. هذه هي مشكلتنا، إننا نتعامل مع المرأة بصفات ومسميات عديدة ليس من بينها صفة أو مسمى إنسان.

المثقفون والمرأة الإنسان:

إننا لا ندعو إلى العري والإباحية، ولا إلى التقييد والحبس والتعتيم، بل ندعو إلى إنسانية المرأة التي تثق بنفسها وتعرف ما لها وما عليها، امرأة تهتم بعقلها وروحها وذوقها ولا تقف عند حدود الاهتمام بجسدها فقط. وهذا لن يحدث إلا إذا تغيرت نظرة المجتمع الخاطئة للمرأة، هذه النظرة التي تعتبر المرأة متاعاً ووعاءً، وهي نظرة روج لها رجال الدين وتجار الرقيق، ومصدر التغيير هذا يجب أن ينبع من المثقفين والمفكرين، أما رجال الدين وتجار الرقيق فلا أمل فيهم، ومن ينظر إليهم بعين الرجاء والأمل فهو واهم، فرجال الدين يعتقدون بأنهم يحتكرون الحقيقة التي لن يتنازلوا عنها مهما حصل، وتجار الرقيق يرون في المرأة مصدر ربحهم وكسبهم وهم أيضاً لن يتنازلوا عن هذا الربح مهما حصل.

والسؤال المهم، ما الذي يمكن أن يفعله المثقفون لضمان إنسانية المرأة؟ والجواب هو يجب عليهم أولاً أن يعملوا على تحرير الرجال من أفكارهم الخاطئة عن النساء. فواقع الحال يشير إلى أن الرجال سجناء مجموعة من الأفكار المشوهة عن النساء والتي تجعلهم يتصرفون معها على أنها متاع ووعاء ليس إلا. ولكن الجدير بالذكر أن الدور الذي يلعبه المثقفون اليوم محدود جداً بهذا الخصوص، والسبب يعود إلى القوة الكبيرة التي يتمتع بها رجال الدين وتجار الرقيق المتسلحون بالمال والسلاح، والغريب في الأمر أنهم كثيراً ما يقفون

جنباً إلى جنب ـ رغم الحرب الظاهرية بينهم ـ لمحاربة المثقفين الداعين إلى إنسانية الإنسان. لأجل هذا نقول: إن من يريد أن ينقذ الوضع المزري الذي تعاني منه النساء عليه أولاً أن يقلل من هيمنة رجال الدين وتجار الرقيق ويعمل في المقابل على تعظيم دور المثقفين الإنسانيين العاملين.



غطاء الرأس والحشمة

لا حجاب في الإسلام:

ليست هناك ملابس محددة مفروضة على الناس، وذلك ببساطة لأن الملابس والأزياء متغيرة بتغير الزمان والمكان. وليس هناك حجاب في أي دين، بل هناك احترام للجسد. ولو بحثنا في جميع الكتب المقدسة ومنها القرآن عن كلمة حجاب بمعنى ملابس خاصة بالنساء، لما وجدنا. إذن، لماذا هذا الإصرار على استخدام كلمة حجاب من قبل المسلمين؟ إن استخدام هذه الكلمة يعبر عن حجب النساء عن الحياة، كما أنه يضيع المعنى الحقيقي الذي يريده الدين لاحترام الجسد.

لم يفرض الإسلام ملابس خاصة بالنساء، ولكنه وضع صفات لها. وملابس النساء في الإسلام كما يراها رجال الدين، تتمثل بغطاء الرأس (الخمار)، والثوب الواسع (الجلباب). والحاصل اليوم هو إطلاق كلمة حجاب على غطاء الرأس فقط، واعتباره رمزاً للتقوى ورمزاً للدين. إن حصر احترام الجسد بغطاء الرأس وتجاهل ما عدا ذلك لا يتصل بحقيقة فهم الدين للجسد. ليس في الدين حجاب، هذه هي الحقيقة التي يجب أن ننطلق منها لفهم قيمة الجسد في الإسلام أو أي دين آخر.

ما يسمى في مجتمعاتنا بالحجاب هو ليس سوى غطاء الرأس

الذي لا يعني للبعض شيئاً ولكنه يعني للبعض الآخر الشيء الكثير، فهو في نظرهم مقياس الطهر وعدم ارتدائه يعني الفسق. بهذا الفهم فقد الجسد احترامه. فحتى العارية إذا ارتدت غطاء الرأس صارت محجبة. وهذا الفهم أيضاً، هو الذي دفع المرأة المسلمة إلى ارتداء غطاء الرأس وإبراز مفاتن الجسد. من الواجب القول إن الجسد ليس الرأس فقط، فإذا أردنا احترامه فعلينا احترامه كاملاً، أما من يرى في غطاء الرأس شرفاً ورفعة للمرأة فهو لا يفهم معنى الشرف. والتي ترتدي غطاء الرأس وتسعى لإبراز مفاتن الجسد، ما زالت تعتقد بأن الجسد بضاعة.

على العموم، هناك وجهتا نظر حول غطاء الرأس في الإسلام. وجهة النظر الأولى ترى أنه فريضة واجبة، والثانية ترى أنه ليس فريضة واجبة، وكلاهما يعرضان الأدلة النقلية والعقلية لإثبات وجهة نظرهم. وليس المهم أن تكون مع أو ضد غطاء الرأس، المهم أن تكون مع احترام الجسد، وإن ترى أن الجسد مستودع الروح، يؤثر فيها وتؤثر فيه، وتتعامل معه باعتدال واحترام وتبجيل، وأن ترى أنه إذا حررنا الروح تعلمنا كيف نحترم الجسد.

المرأة بين غطاء الرأس والحشمة:

ظهرت في المجتمعات الإسلامية نساء يرتدين غطاء الرأس مقابل أخريات لا يرتدينه، وينظر المجتمع إلى نساء الفئة الأولى على أنهن ملتزمات بتعاليم الدين الإسلامي وأنهن متدينات أما الأخريات فهن من غير الملتزمات أو من غير المتدينات، ويوصفن من قبل البعض بالفاسقات أو المجاهرات بالفسق. هذا الواقع الاجتماعي المريض يقتضي منا القول إن هناك فرقاً جوهرياً بين غطاء الرأس الشائع بين النساء وبين الحشمة التي ينبغي أن تكون هي السائدة. وقبل أن نبدأ في إيضاح معنى الحشمة نرى من المناسب التنويه إلى أنها، أي الحشمة

ينبغي لها أن تتوافر في النساء والرجال على حدٍ سواء وأنها ليست حكراً على النساء فقط، لأنها في نظرنا فضيلة يجب أن يتحلى بها الجميع. كما نود التنويه أيضاً إلى أنه قد ترد في بعض الجمل كلمة (حجاب) والمقصود بها غطاء الرأس لكننا نذكرها فقط من باب الشيوع وكثرة الاستخدام ليس إلا.

والحشمة، في نظرنا، لصيقة بالجوهر والمظهر ولا يمكن لها أن تكون مع أحدهما دون الآخر. ووظيفة الحشمة هي أن تجعل العلاقات بين أفراد المجتمع الواحد أو المجتمعات المختلفة، علاقات إنسانية قائمة على الاحترام والحب والتقدير والصدق والتواضع بعيداً عن التزييف والكذب والغش والتباهي والتكبر. والحشمة بهذا الوصف لا يمكن لها أن توجد لدى الفرد، سواء كان رجلاً أو امرأة، ما لم يكن صاحب فضيلة إنسانية عميقة مصدرها الآداب والفلسفات والديانات والعلوم والفنون، أي أن الدين هو أحد المصادر وليس المصدر الوحيد. والحشمة أيضاً متغيرة مع تغير هذه الفضيلة الإنسانية من زمان إلى آخر أو من مكان إلى آخر. وبهذا ندرك أن للحشمة جوهراً يكاد يكون ثابتاً أما صورها أو مظاهرها أو مصاديقها فهي متغيرة. وما يهمنا من بيان معنى الحشمة في هذا الموضوع هو علاقتها بالملابس أو الأزياء، وهل هي مرتبطة بغطاء الرأس أم لا؟ وهل يحق لنا أن نحكم على الآخرين بالفسق وعدم التدين لمجرد أن ملابسهم لا تتفق مع أذواقنا أو مع تصوراتنا التي رسمها لنا رجال الدين؟

توجد في المجتمعات الإسلامية نساء يرتدين غطاء الرأس (محجبات) وأخريات لا يرتدينه (سافرات)، وفي كلا الفئتين توجد نساء محتشمات وأخريات غير محتشمات، وبهذا يصبح لدينا أربعة أصناف من النساء وفقاً لطريقة لبسهن، نساء محجبات ومحتشمات، ونساء محجبات وغير محتشمات، ونساء غير محجبات ومحتشمات،

ونساء غير محجبات وغير محتشمات. وما نقصده من ذكر هذه الأصناف الأربعة هو محاولة التأكيد أن الحشمة ينبغي لها أن تكون هي المقياس في التدين وليس غطاء الرأس، ونقول مقياس التدين وليس الدين لأن الدين علاقة بين الإنسان وربه ولا يمكن الحكم عليها من المظهر. كما أن من الجدير بالذكر أن الحشمة من الفضائل التي تطلب لذاتها ونتائجها، سواء كان مصدرها الدين أو لم يكن. ووفقاً لهذا المفهوم فإن على المجتمع أن يقدم الاحترام للمرأة المحتشمة بغض النظر عن ارتدائها لغطاء الرأس، ولكن واقع الحال يشير إلى عكس ذلك، فالمرأة غير المرتدية لغطاء الرأس تلاقي في معظم الأماكن تعاملاً مختلفاً عن مثيلتها المحجبة، وأحياناً كثيرة تتعرض إلى الإهانة والسب والشتم والقذف وربما التهديد والقتل.

أسباب انتشار غطاء الرأس:

بدأ انتشار غطاء الرأس في المجتمعات الإسلامية مع بداية الربع الأخير من القرن الماضي، بعد فترة تجاوزت النصف قرن كان قد تضاءل فيها غطاء الرأس إلى حد الانقراض. وأسباب عودة ظهور غطاء الرأس في المجتمعات الإسلامية عديدة تختلف من مجتمع إسلامي إلى آخر، فقد يكون أحدها أكثر أهمية من غيره في بلد ما، لكنه قد لا يكون ذو تأثير يذكر في بلدٍ آخر، ومع ذلك يمكن إجمال هذه الأسباب بأسباب سياسية وثقافية واجتماعية واقتصادية.

1 ـ **أسباب سياسية**: تتمثل باعتقاد الأحزاب الدينية بأن انتشار المظاهر الدينية، ومنها الحجاب، في المجتمعات الإسلامية دليل على نجاحها واكتسابها القاعدة الشعبية التي تؤمن لها الوصول إلى السلطة. كما أن محاربة بعض الحكومات الاستبدادية للحجاب دفع بالمعارضين إلى التمسك به كنوع من أنواع التعبير

عن الرفض للحكومة كما حدث في العراق إبان حكومة البعث. فضلاً عن ذلك، فان ما تقوم به بعض الحكومات الغربية من منع الحجاب كما في فرنسا مثلاً، دفع بالمسلمات إلى التمسك بالحجاب كوسيلة دفاعية لمواجهة الآخر.

2 ـ **أسباب ثقافية**: تتمثل بتوسع وانتشار (الثقافة الخليجية) نتيجة لامتلاكها الإمكانات الاقتصادية التي دفعت الكثير من العرب والمسلمين إلى العمل في هذه الدول والتأثر بها كما هو الحال لدى معظم المصريين. كذلك سيطرة الثقافة الخليجية على العديد من وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية، وخصوصاً الفضائيات.

3 ـ **أسباب اجتماعية**: تبدل مقاييس الشرف والأخلاق ساهم في تغيير طريقة تقييم الرجال للنساء، فلم يعد الشرف مرتبطاً بالقول والعمل بل مرتبطاً بالجسد، وهذا ما دفع المرأة إلى الاستجابة لمتطلبات المفهوم الجديد عن الشرف. كذلك تنامي الأزمة الاجتماعية، خاصة مشكلة الزواج، وارتفاع معدلات العنوسة، وتقديم الحجاب باعتباره حصناً اجتماعياً للمرأة، أدى إلى دعم تواجده.

4 ـ **أسباب اقتصادية**: تجبر الظروف الاقتصادية بعض النساء إلى اللجوء إلى الحجاب وذلك لعدم توافر مستلزمات السفور، وهذا ما حصل في العراق أثناء فترة الحصار التي استمرت من 1991 ـ 2003، وكذلك الحال في العديد من البلدان أو الأحياء الفقيرة. فضلاً عن هيمنة اصحاب رؤوس الأموال الخليجيين على سوق العمل وفرض الحجاب على الراغبات بالعمل.

أسباب انتشار الحجاب غير المحتشم:

منذ بداية العقد الأخير من القرن العشرين، بدأ انتشار الحجاب غير المحتشم، إذ أصبح غطاء الرأس هو المعبر عن الحشمة أما بقية الملابس فلا علاقة لها. وقد ناقشت الروائية مي خالد هذا الموضوع بمقالة تحمل عنوان (محجبات.. وباقي البنات) تمثل تحليلاً نفسياً واجتماعياً لظاهرة الحجاب غير المحتشم نشرت في مجلة روز اليوسف العدد (4111) الصادرة بتاريخ (3/ 2007)، جاء فيها عن أسباب انتشار الحجاب غير المحتشم «إن نسبة كبيرة من أولئك الفتيات، قد تحجبن تحت ضغط اجتماعي، وليس عن وازع ديني حقيقي»، و«إن هذا الميل إلى عدم التحشم هو خطوة أولى نحو خلع الحجاب نهائياً».

تقول إحدى المحجبات في نفس المقالة المذكورة أعلاه: «أنا ارتدي غطاء الرأس لكنني لا اعتبر نفسي محجبة، لأنني أجبرت على الحجاب... إن غطاء الرأس يجعلني أمام صاحبي حلوة، وأمام نفسي متحررة، وأمام الناس محجبة... كما أن الشباب في الجامعة لا يدخلون معنا في مناقشة مباشرة في الدين لأن كل مناقشات الدين تنتهي بعراك ولا نخرج منها إلا بخسارة بعضنا».

إن المتتبع لظاهرة انتشار الحجاب غير المحتشم يمكن له أن يتوصل إلى عدد من الأسباب الكامنة وراءه، نذكر في ما يلي بعضها:

1 - عدم الانسجام بين ما نفكر به وبين ما نعمل به، والذي يمثل النتيجة الطبيعة لشيوع ثقافات متضاربة في تطرفها، فالمرأة تقف عاجزة حيال ثقافة التطرف الديني الذي يقود رايته عدد من رجال الدين وثقافة الإباحية التي تقود رايتها عدد من الفضائيات ووسائل الإعلام المختلفة التي تهيمن على ساعات عديدة من وقت المرأة المسلمة.

2 ـ عدم تقبل الجميع لبعضهم البعض، وحالة غياب الحوار المتبادل، وانعدام القدرة على طرح الرأي وتقبل الرأي الآخر، وخروج الجميع بفكرة أن خلاف الرأي يفسد للود قضية، وبالتالي شيوع ظاهرة العنف المستخدم ضد الآخر المخالف، ومنها انتشار العنف ضد النساء سواء من الأسرة أو المجتمع أو الجماعات الدينية، لذلك لجأت المرأة إلى الاحتماء بغطاء الرأس من هذا العنف.

3 ـ غياب الوعي المعرفي الرصين الذي في مقدوره أن ينظم السلوك الإنساني ويجعله في حالة من الانسجام بين الجوهر والمظهر، فثقافة القراءة والبحث والتقصي تكاد تكون غائبة في المجتمعات الإسلامية، مقابل شيوع ثقافة الاستماع والاستسلام للفتوى التي تتدخل في شتى تفاصيل حياة المسلمين.

النقاب والحشمة:

يفرض بعض رجال الدين النقاب على المرأة، وقد ظهر من يرى أن المرأة غير المنقبة هي فاسقة ومجاهرة بالفسق حتى ولو كانت محجبة. وفي نظرنا أن النقاب لا علاقة له بالحشمة لأنه لا يسمح بظهور أي شيء من المرأة، لذلك لا يمكن أن يُعرف في ما إذا كانت محتشمة أم لا، أنه يعمل على تغليف المرأة من قمة رأسها إلى أخمص قدميها، حتى تصبح أشبه بالكيس الكبير المستخدم لحفظ الحبوب. وقد دار الكثير من الصراع حول جواز النقاب من عدمه، سواء بين رجال الدين أنفسهم أو بينهم وبين المفكرين الإسلاميين أو مع غير المختصين في الشؤون الدينية، ونحن هنا لا نود الخوض في مثل هذا الحوار، ولكننا سوف نكتفي بذكر بضعة أسطر كتبها الدكتور أحمد شوقي الفنجري في مقالة بعنوان (أحاديث ضعيفة تحتقر المرأة) نشرت في مجلة روز اليوسف العدد (4111) بتاريخ (3/ 2007) نرى أنها

تلخص وجهة نظر إنسانية ينبغي أن تكون محترمة من قبل الجميع خصوصاً النساء، جاء فيها: «إن النقاب يلغي شخصية المرأة إلغاءً كاملاً. إن وجه الإنسان هو أكرم مكان من جسمه...، وفي نظري أن من يحاول إلغاء وجه إنسان أسوأ ممن يحاول قتله.. والعالم كله شرقاً وغرباً يحكم على أي شعب يُلزم نساءه بإخفاء وجوههن بأنه شعب متخلف. والنقاب ليس إلغاء لوجه المرأة فحسب.. بل هو إلغاء لآدميتها ولعقلها، وهو إلغاء لدورها في المجتمع كإنسان.. وإذا كان بعض المتشدقين بالنقاب يدعي أن دور المرأة الرئيس في الحياة هو رسالتها كزوجة وأم.. تربي جيلاً.. وترعى أسرة.. فإن هذا النقاب لا يجعلها صالحة لهذه الرسالة بالذات».

الخلاصة:

إن الأزياء والملابس تختلف باختلاف الزمان والمكان. والدين، أي دين، لم يفرض زياً محدداً على أتباعه. والغاية من الملابس هي الحشمة وليست تلبية رغبات رجال الدين. ومصدر الحشمة هو الفضيلة. ومصادر الفضيلة هي الآداب والفلسفات والديانات والعلوم والفنون، وليس الدين وحدة. وما نعرفه اليوم عن الحشمة لا ينسجم مع الفضيلة. لأن الحشمة أصبحت تنحصر بغطاء الرأس وهذا غير صحيح. إن الحشمة ترتبط بجوهر ومظهر الفرد معاً. والمظهر لا يتجزأ بل هو وحدة واحدة تشمل الجسد بأكمله. وإن احترام النساء لا ينبغي له أن يستند إلى غطاء الرأس الذي يُدعى خطأً بالحجاب، بل على الحشمة. وأن شيوع المفاهيم الخاطئة عن تدين المرتديات لغطاء الرأس وعدم تدين غير المرتديات له يعود إلى غياب الحوار وشيوع مفاهيم غير دقيقة عن الدين وسيادة مفهوم احتكار الحقيقة، هذا فضلاً عن أن انتشار غطاء الرأس أصلاً يعود إلى عدد من الأسباب منها السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية.

القسم الخامس
الإسلام الجديد.. ملامحه وقادته



الإسلام الجديد

مؤلفون معاصرون:

ظروف الواقع الحالي السائدة في العالم بأسره تحتم على المسلمين أن يتعاملوا مع الواقع بطريقة مختلفة عما اعتادوا عليه، ولكن المتأمل لحال المسلمين يرى أنهم ما زالوا يتعاملون بطريقة لا تختلف عما كان عليه الإسلام قبل قرون. وهذه الحقيقة هي التي دفعت بالعديد من الباحثين والمفكرين الإسلاميين المعاصرين، الذين درسوا أساليب التفكير العلمي الحديث، إلى خوض غمار الفكر الديني ومحاولة فهمه بطريقة مغايرة لما يفهمه رجال الدين التقليديين. ولقد كانت نتائج بحوثهم ودراساتهم ظهور عدد من المفاهيم الإسلامية المختلفة عن تلك التي يحملها رجال الدين التقليديين، وبالتالي ظهور ملامح جديدة للدين الإسلامي، يرى أصحابها أنها سوف تساهم في بناء إسلام جديد يكون أكثر ملاءمة وانسجاماً مع مقتضيات العصر، وأكثر قدرة على إنتاج حضارة إسلامية معاصرة ترتقي بحال المسلمين، بعد أن عجز الإسلام التقليدي عن تحقيق هذا الغرض.

الإسلام الجديد:

الإسلام الجديد يمكن أن يوجد في كل مكان وزمان، فالإسلام الموجود لدينا اليوم هو إسلام جديد نسبة لما كان عليه الإسلام في عهد الخلافة العثمانية، التي تعد صاحبة إسلام جديد نسبة لما كان

عليه الإسلام في عهد الخلافة العباسية. . وهكذا، فكل عصر له إسلامه الخاص به والذي يُعد جديداً نسبة لما سبقه، والإسلام الذي ندعو إليه هو إسلام جديد نسبة لما هو سائد في عصرنا هذا والذي لم يعد ملائماً لحياتنا الجديدة وظروفها وتعقيداتها والذي يطلق عليه الإسلام التقليدي. وهذا الإسلام الجديد الذي ندعو إليه سوف يصبح يوماً ما بحاجة إلى تجديد وتطوير ليظهر بعده إسلام جديد يحاول تغييره لما ينسجم مع متطلبات العصر الجديد القادم.

ملامح الإسلام الجديد:

الملامح التي رسمها دعاة الإسلام الجديد عديدة ولكنها متناثرة في بطون كتبهم ودراساتهم وبحوثهم، كما أن أسلوب عرض هذه الملامح وطريقة رسمها اختلفت من باحث إلى آخر وفقاً لتخصصه وأسلوب البحث الذي يعتمده، ولكن المتأمل في هذه المصادر يجد بينها ملامح مشتركة لو قام بتجميعها لوجد فيها صورة تكاد تكون مكتملة. وفي ما يلي أبرز تلك الملامح وأهمها كما نراها:

أولاً: الإسلام الجديد يحترم العقل، ويجعله المحور الأساس في إدراك معنى الوجود وغايته، ويترتب على هذا عدم قبول فكرة الإتباع والتقليد، وبالتالي ليس هناك مناطق محرمة وخطوط حمر، فكل القضايا خاضعة لسلطة العقل.

ثانياً: الإسلام الجديد لا يدعي احتكار الحقيقة، لكنه لا يعارض دعوى امتلاك الحقيقة، ولعل هذا المبدأ يقودنا إلى مبدأ التعددية الدينية، بمعنى أن بقية الديانات تملك الحقيقة أيضاً وأنها جميعها على خير، وأن الجنة ليست حكراً على المسلمين فقط بل هي من حق كل البشر بغض النظر عن دياناتهم.

ثالثاً: الإسلام الجديد يقدس الإنسان ويجعله القيمة العليا في

الوجود، لذلك فهو يرفض استخدام العنف ضده تحت أي ذريعة كانت، فلا وجود لعقوبة الردة في الإسلام الجديد، فمن حق الإنسان أن يختار دينه إذا لم يقتنع بدين أبويه.

رابعاً: الإسلام الجديد يرفض فكرة المقدس، خصوصاً في ما يتعلق بالأشخاص، لذلك فالكل يمكن نقدهم ومعارضتهم سواء كانوا شخصيات تاريخية أم شخصيات معاصرة، وبالتالي فإن رجل الدين، إذا وجد في الإسلام الجديد، فإنه ليس مقدساً ولا معصوماً ولا يملك أي وصاية على عباد الله، وأنه ليس صوت الله في أرضه.

باختصار، إن الإسلام الجديد الذي نريده، يرفض الاحتكار والتطرف والتخلف.

قادة الإسلام الجديد:

قادة الإسلام الجديد ليسو رجال دين تقليديين، بمعنى أنهم لا ينتمون إلى المؤسسة الدينية التقليدية، بل هم باحثون ودارسون أكاديميون، يعملون عادة في المؤسسات الجامعية والبحثية المتخصصة، لذلك فإنهم يمتازون باتباعهم لمناهج البحث العلمي التي من أهم سماتها الشك في كل قضية حتى تثبت صحتها، فهم يرفضون التسليم المسبق بصحة القضايا. والميزة الأخرى أنهم ممن اطلعوا على الفكر الديني لغالب الديانات وليس للدين الذي نشأوا عليه فقط، وهذه الميزة ساعدتهم على تفهم العلاقات الرئيسة بين الأديان، كما ساعدتهم على تفهم الآخر وإيجاد الأعذار له فيما يعتقد دون اللجوء إلى تخطئته أو تكفيره كما يفعل رجال الدين التقليديين.

وهؤلاء الكُتاب، الذين نرى أنهم قادة الإسلام الجديد، كُثر ولا يمكن إحصاؤهم، ولكن لا بأس بذكر بعضهم ليكونوا عينة لما قصدناه وليس لتميزهم عن بقية الكُتاب والباحثين والدارسين، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر: نصر حامد أبو زيد، علي الوردي، عبدالكريم

سروش، سيد محمود القمني، محمد سعيد العشماوي، فرج فودة، محمد آركون، وآخرون غيرهم، وكل واحد منهم اهتم بدراسة جانب من جوانب الدين والتدين تبعاً لمجال تخصصه ودراسته وهذا ما ساعدهم على إلقاء الضوء على مناطق من الدين كان يلفها الغموض وتسودها العتمة.

فنصر حامد أبو زيد درسَ مفهوم النص الديني من الناحية اللغوية وكيفية التعامل معه عبر التاريخ الطويل للدين، وكيف تحول هذا النص إلى مقدس لا يمكن الاجتهاد في فهمه بسبب احتكار رجال الدين لتفسيره، وكيف أنهم أطلقوا قاعدة (لا اجتهاد أمام النص) وبالتالي حجموا النص وجمدوه في تابوات لا يمكن العدول عنها أو تركها حتى ولو ثبت عملياً عدم صلاحياتها للواقع المعاصر.

أما الدكتور علي الوردي فقد اهتم بدراسة علاقة الدين بالمجتمع وكيف يؤثر كل واحد منهم في الآخر، مؤكداً على أن أسلوب الوعظ السائد في الأوساط الدينية هو المسؤول عن شيوع ظاهرة ازدواج الشخصية في المجتمعات التي يتعاظم فيها دور رجال الدين. وأن غالب رجال الدين عبر العصور المختلفة كانوا وعاظًا للسلاطين وليسوا خداماً لله والإنسان.

وأما عبدالكريم سروش فيرى أن هناك أكثر من صراط واحد بإمكانه أن يصل بالإنسان إلى التكامل، وإن التعددية الدينية هي السبيل للعيش في هذا العالم بأمان وسلام، فصراعاتنا اليوم ـ كما هي عبر التاريخ الطويل ـ صراعات دينية بالأساس أو على الأقل استغل فيها الدين بشكل كبير.

وسيد القمني ركز على أن الديانات لا تنشأ من فراغ، ولا تظهر إلى الوجود دفعة واحد، بل إنها تخضع لمفهوم التطور والتغير، وإنها غير منفصلة عن بعضها بل هي مترابطة في ما بينها، وأن العديد من

الأفكار والتصورات عن الكون والخالق والتي كانت سائدة في الديانات القديمة، ما زالت حاضرة في الديانات المعاصرة لم يطرأ عليها إلا بعض التغيير البسيط الذي يجعلها منسجمة مع طبيعة المجتمعات التي وجد فيها الدين.

ومحمد سعيد العشماوي قدم نظريته عن (وحدة الدين وتعدد الشرائع) والتي فرق فيها بين الدين والفكر الديني، وبين الشريعة والفقه، وبين حكومة الله وحكومة الناس، وهو تفريق ضروري جداً لا يمكن بدونه فهم الدين فهماً صحيحاً نافعاً للإنسان والمجتمع. وإن الفكر الديني السائد اليوم هو في معظمه نتاج الظروف الاجتماعية التي كانت سائدة في زمن رجال الدين الذين صاغوه، وأنهم عملوا على تدوينه باعتباره الدين نفسه، وهذا غير صحيح.

ولا يمكن بطبيعة الحال أن نتتبع أفكار جميع هؤلاء الكُتاب، ولكن علينا القول إنه سواء اتفقنا مع هذه الأفكار أم لم نتفق، فإن الاطلاع عليها يعد في نظرنا من الضروريات، لأنه يفتح الآفاق أمام العقل للبحث والتقصي والعيش في حالة من التأمل والتفكير التي تعمل على ترقية الإنسان وتقدمه في مسيرة التكامل الوجداني والمعرفي، وبالتالي استيعابه لمعنى الوجود وغايته وطرائق العيش وسبلها، بمعنى آخر تمكنه من إدراك حقيقة الدين وجوهره.

الرواد الأوائل:

إن الأسماء التي ذكرناها آنفاً لم تكن هي الرائدة في مجال الدراسات الدينية، تحديداً الإسلامية، فقد سبقتها أسماء عديدة كان لها الدور البارز في تجديد الدين الإسلامي وطريقة فهمه وإدراكه والتعامل معه، من هذه الأسماء البارزة: طه حسين، وعباس العقاد، وأحمد أمين، ومحمد حسين هيكل، وتوفيق الحكيم. والجدير بالذكر أن

القارئ يعرف هؤلاء الكتاب على أنهم باحثون في الشؤون الأدبية (الشعر والقصة والمسرحية وغير ذلك من فنون الأدب) ولكن ربما لا يعرفهم كباحثين في الإسلاميات، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن هؤلاء الكُتاب ألفوا أولاً في الشؤون الأدبية ولم يتطرقوا إلى الإسلاميات إلا في العقد الثالث من القرن الماضي تقريباً.

بعض الباحثين اعتبروا أن تحول هؤلاء الكُتاب إلى دراسة الإسلاميات نوع من الردة الحضارية أو الانتكاسة التي جعلتهم يكفون عن العطاء ويتجهون بالجملة إلى دراسة التاريخ ورجاله، بدلاً من دراسة الحاضر واستشراف المستقبل. أما البعض الآخر فقد رأى أن تحول هؤلاء الكُتاب لدراسة الإسلاميات كان (غزواً من جانب المثقفين للجهل والخرافة) التي كانت، وما زالت، سائدة لدى الغالبية من رجال الدين التقليديين.

ولعل الأيام أثبتت أن الرأي الثاني هو الأكثر صحة وهو الأقرب إلى الصواب، فما فعله هؤلاء الكُتاب كان مجهودًا رائعاً يستحق الاحترام والتقدير. ولعلي لا أغالي إذا قلت إن العديد من الأسماء التي ذكرناها مثل: علي الوردي، وسيد القمني، وفرج فودة، ونصر أبو زيد، ومحمد سعيد العشماوي، وغيرهم هم ممن تأثروا أو تتلمذوا على يد هؤلاء الكُتاب الرواد، لذلك فإن الدور التجديدي الذي لعبه طه حسين واحمد أمين والعقاد وهيكل والحكيم في القرن الماضي هو الدور نفسه الذي يلعبه القمني ونصر أبو زيد والعشماوي وغيرهم في القرن الحالي. وأن ما قيل عن الكُتاب الرواد يقال عن الكُتاب المعاصرين أيضاً فجميعهم (أرادوا بعث الإسلام بعثاً جديداً لا يعتمد الأحاجي والألغاز والطلاسم التي تراكمت على الحواشي والهوامش، حتى لم يعد العربي المسلم قادراً على فكها وحلها ومعرفتها). لذلك (يجب أن نتوجه إليهم بالشكر، لأنهم استناروا بالعلوم الحضارية

الحديثة كعلم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ والفلسفة، وها هم يسددون دينهم لتراث أمتهم فيعاودون فيه النظر ويمعنون الفكر والتأمل، ويخرجونه من ظلمات القبور وأكفانها العتيقة معرفة حية متجددة معاصرة).

قبل إنهاء هذه الفقرة نرى من المناسب أن نذكر ما قاله طه حسين عن الدور الذي لعبه هو وزملاؤه من الكُتاب في مجال البحث في الإسلاميات ومواجهة الاحتكار الذي يمارسه رجال الدين التقليديين، إذ يقول: «الغالبية كانت ترزح في تلقيها للإسلام تحت أثقال التفسيرات غير العلمية للمشايخ. وجئنا نحن بروح فدائية حقيقية نقتحم هذا الميدان المغلق عليهم. أتيناهم في عقر دارهم لنوقظ المسلمين على تاريخهم الحقيقي... ما هي أسباب النقمة العاتية والثورة الضارية التي شنها السلفيون من المحافظين؟ أليس ذلك لأننا هاجمنا أوكارهم المظلمة وسلطنا داخلها الشمس والهواء النقي وفضحنا أستارهم المضللة. لقد فضلنا إنقاذ مئات الألوف من هيمنة دكتاتورية الجهل وعبودية دولة الخرافة على أن نظل أسرى إعجاب المثقفين، صفوة المثقفين».

معرفة الدين من مصدر آخر:

لعله من المناسب القول أن على الفرد أن لا يكتفي برجال الدين التقليديين لمعرفة دينه وتدينه، بل عليه أن يلجأ إلى الباحثين والدارسين الأكاديميين من خارج المؤسسة الدينية التقليدية لتحقيق هذا الغرض، لأنهم استطاعوا أن يتعرفوا على معارف وعلوم جديدة تؤهلهم لفهم طبيعة الدين والتدين بطريقة مغايرة لما يعرفه رجال الدين التقليديين، ولعل فهمهم هذا يكون أكثر نفعاً للفرد والمجتمع، وأكثر انسجاماً مع واقع الحياة المعاصرة. ولعلي لا أغالي إذا قلت إن الذين يكتفون

برجال الدين التقليديين لمعرفة دينهم وتدينهم هم أشد الناس جهلاً بجوهر الدين ومعنى التدين، لأن رجال الدين اليوم غالباً ما يكونون من أشد الناس تعصباً لدينهم بل ولمذهبهم في كثير من الأحيان، وعادة ما يكونون من مدعي احتكار الحقيقة واحتكار الجنة أيضاً، ورجال دين يحملون مثل هذا الاعتقاد لا يمكنهم في نظرنا أن يدركوا جوهر الدين ومعنى التدين، لذلك نرى أن من الخطأ الاعتماد عليهم فقط في معرفة الدين والتدين لأن فاقد الشيء لا يعطيه.

الباحثون الأكاديميون ورجال الدين التقليديون:

وربما هذه الدعوة التي ندعوها هي السبب وراء العداء الذي تكنه المؤسسة الدينية إلى الباحثين والدارسين الأكاديميين، خصوصاً أولئك الذين يتصدون لمواضيع الدين والتدين. ولعل مما يثبت صحت قولنا هذا هو أن جميع الباحثين الذين ذكرناهم في أعلاه قد تعرضوا إلى شتى أنواع المضايقات التي شملت النفي من الأوطان كما هو الحال مع نصر حامد أبو زيد، أو التهديد بالقتل في حالة عدم التوبة والتوقف عن الكتابة كما هو الحال مع سيد القمني، أو حتى بالقتل كما هو الحال مع فرج فودة.

إن رجال الدين التقليديين يرون في الباحثين والدارسين الأكاديميين منافسين لهم، يخشون من انتشار أفكارهم وآرائهم الداعية إلى عدم الخضوع لسلطة المؤسسة الدينية التي أصبحت في نظرهم عاجزة عن تحقيق النفع للفرد والمجتمع، بل يرى بعضهم أن ضررها أصبح أكثر من نفعها. ولعل هذا الخوف قديم في نفوس رجال الدين، فقراءة تاريخ نشوء المؤسسات التعليمية في العراق مثلاً يشير إلى معارضة رجال الدين لها بحجة أنها من خطط الاستعمار لإضعاف المؤسسة الدينية وتقليل ولاء الناس لها، ولا تزال هذه الفكرة باقية في

أذهان العديد منهم، فتجدهم بين الحين والآخر يؤلبون الناس على المدارس والجامعات بحجة أن فيها فساداً وانحرافاً واختلاطاً يتنافى مع تعاليم الدين الحنيف!!

هذا الصراع الخفي أحياناً والمعلن أحياناً أخرى أصبح في الربع الأخير من القرن العشرين يصب لصالح رجال الدين لأسباب عديدة لا مجال لذكرها الآن. ولعل هذا ما دفع بعدد من رجال المؤسسة الأكاديمية أن يظهروا تحيزهم لرجال الدين إما خوفاً من بطشهم أو رغبة بالانتفاع منهم. فلقد أصبح من الشائع أن تجد مدرسّاً جامعياً يحمل في ذهنه أفكار رجال الدين التقليديين، فتراه، مثلاً، يرفض تدريس نظرية التطور لأنها كفر وإلحاد. وهذا الحال الذي وصل إليه المدرس الجامعي لا يعود فقط إلى هيمنة وسيطرة المؤسسة الدينية على جوانب الحياة والمجتمع، بل يعود أيضاً في جانب كبير منه إلى تراجع دور المؤسسة التعليمية في تخريج باحثين ودارسين ومفكرين قادرين على مواجهة الفكر الديني التقليدي. لعلنا لا نغالي إذا قلنا، إن تراجع دور المؤسسة التعليمية مقابل تعاظم دور المؤسسة الدينية لا يصب في مصلحة الفرد والمجتمع، ولعل هذا ما يؤكده الواقع المعاش الذي أخذ يتدهور يوماً بعد يوم.



الدين والتدين من وجهة نظر سروشية

التخصص المعرفي:

ولد عبدالكريم سروش في العاصمة الإيرانية طهران عام (1945)، وقد تَنَقَّلَ في دراسته قبل الجامعية بين الدراسات الدينية وغير الدينية، أما دراسته الجامعية فقد كانت في كلية الصيدلة في طهران، وبعد ذلك حصل على بعثة دراسية إلى بريطانيا، حيث درس في جامعة لندن فرع الكيمياء التجريبية، وفي نفس الوقت واصل دراسته في علم التاريخ وفلسفة العلوم في الجامعة نفسها. ومع انطلاق الثورة في إيران عام (1979) عاد إلى طهران، وبعد فترة دخل جامعة طهران وحصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة الإسلامية.

النظريات السروشية الأربع:

هذا الخليط المعرفي الذي تمتع به عبدالكريم سروش أهله للبحث في قضايا الدين بشكل جريء ودقيق، وساعده كثيراً في الخوض في مواضيع يتردد الكثيرون عن الخوض فيها. وابرز مؤلفات سروش هي: (القبض والبسط في الشريعة)، و(بسط التجربة النبوية)، و(الصراطات المستقيمة)، و(الدين العلماني)، و(العقل والحرية). وجميع مؤلفاته هذه تستند إلى فلسفة العلوم وإلى علم المعرفة (الإبستمولوجيا Epistemology).

قدم سروش في مؤلفاته السابقة، أفكاره الرئيسة في الدين

والمعرفة الدينية، والتي تتضمن أربعة مفاهيم أو نظريات رئيسة هي: (1) بشرية وتاريخية المعرفة الدينية، (2) بشرية وتاريخية الدين والتجربة الدينية، (3) التعددية الدينية، (4) علمانية الدين. وهذه المفاهيم أو النظريات الأربع من وجهة نظرنا، تمثل ركائز أساسية من بين ركائز الإسلام الجديد الذي يعمل على تأسيسه، دون اتفاق مسبق بل لوجود الحاجة إليه، عدد من الباحثين الأكاديميين ومن بينهم عبدالكريم سروش.

بشرية المعرفة الدينية:

يميز عبدالكريم سروش بين الدين والمعرفة الدينية، وهو تمييز شبيه بما فعله محمد سعيد العشماوي عندما ميز بين الدين والفكر الديني. وهذا التمييز ضروري في فهم الدين، لأنه يساعد على التمييز بين الشريعة التابعة للدين وبين الفقه التابع للمعرفة الدينية. أطلق سروش على نظريته هذه (القبض والبسط في الشريعة)، وهو يقصد من استخدام كلمتي (القبض والبسط) الإشارة إلى عنصر التحول والتغير، والاتساع والضيق، والمرونة والصلابة، الحاصلة في جميع الأشياء ومنها المعرفة الدينية. وفي معرض التمييز بين الدين (الشريعة) وبين المعرفة الدينية (الفقه)، كتب سروش النقاط التالية: (1) الدين، في نظر المؤمنين به، لا تناقض فيه ولا اختلاف، أما المعرفة الدينية فتتضمّن تناقضاً واختلافاً. (2) الدين في منظار المؤمنين حقٌّ كله، أما المعرفة الدينية فمزيجٌ من الحق والباطل. (3) الدين كامل أما المعرفة الدينية فليست كاملة. (4) الدين ثابت أما المعرفة الدينية فمتغيرة.

يُصر سروش على أن المعرفة الدينية، مثلها مثل بقية المعارف العلمية والفلسفية، هي معرفة بشرية، ومعنى كونها بشرية أنها: أولاً، تولد وتنمو على يد البشر. وثانياً، أن خصال البشر وصفاتهم كلّها تتغلغل في

داخل المعرفة التي راكموها، وليس فقط قواهم العاقلة التي تميز الصحيح من السقيم، وتسعى جاهدةً لحصر الحكم في يد البرهان والمنطق.

ويرى أيضاً أن المعرفة الدينية ترتبط بالمعارف البشرية الأخرى وتتغذى منها، وبالتالي فإن المعارف البشرية تغني الفهم الديني وتعمّقه. وهذا الترابط بين المعرفة الدينية وبقية المعارف البشرية يجعل من المعرفة الدينية خاضعة لنفس ما تخضع إليه المعرفة البشرية من تغيير وتطوير وتبديل وحذف وإضافة، أي تتعرض إلى القبض والبسط، يقول سروش في هذا المعنى: «إذا تعرضت المعارف البشرية غير الدينية للقبض والبسط، فلا بد أن يتعرض فهمنا للشريعة إلى القبض والبسط أيضاً، أحياناً بصورة ضعيفة وخفيفة، وأحياناً بصورة شديدة وقوية».

بشرية التجربة الدينية:

لم يكتف سروش بتأكيد بشرية المعرفة الدينية، بل تجاوزه إلى أكثر من ذلك وهو بشرية الدين نفسه من خلال بشرية التجربة النبوية. فهو يرى أن الدين هو استجابة لحاجة البشر وظروفهم وليس العكس، بمعنى أن الدين جاء لخدمة الإنسان ولم يخلق الإنسان لخدمة الدين. وهذه الفكرة تقود إلى أن تعاليم الدين جاءت منسجمة ومتناغمة مع الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للنبي، وأنه لولا هذه الظروف لما جاء الدين بهذه الصيغة، فلو لم يضطر النبي إلى ممارسة السياسة لما احتوى الدين على تعاليم في القضايا السياسة، وهكذا هو الحال مع بقية القضايا والمواقف والأحداث التي عالجها الدين (قرآن أو حديث). ويترتب على ذلك أن الوحي جاء استجابة لحاجة النبي النفسية والاجتماعية والسياسية والاقتصاديةِ، بمعنى أن الوحي كان تابعاً لشخصية النبي لا أنّ النبي تابع للوحي. ولأن حاجات النبي متغيرة ومتجددة ومتطورة جاء الدين على دفعات وليس دفعة واحدة، وأن الدين الذي يجيء بالتدريج أثناء حياة النبي من الضروري أن يكون

متغيراً بالتدريج أيضاً بعد حياة النبي. هذه الفكرة التي قدمها سروش دعاها (بسط التجربة النبوية) بمعنى أن التجربة النبوية مبسوطة ومفتوحة على كل العصور والظروف وليست مقبوضة ومغلقة عن الاستجابة لشؤون الحياة والإنسان. ولقد لخص سروش فكرته هذه بالقول: «إن تعامل النبي مع الواقع الخارجي أدى قطعاً إلى بسط رسالته وبالتالي إلى بسط تجربته النبوية. أي أن الدين الإسلامي الذي بين أيدينا لم ينزل على النبي مرّة واحدة وبقي على هذا الحال إلى الأبد، بل تكوّن وانوجد بالتدريج، والدين الذي يتكوّن تدريجياً فإنّ حياته وحركته بعد ذلك ستكون تدريجية أيضاً».

قدم سروش عدداً من الأدلة لإثبات صحة نظريته هذه، منها ان القرآن جاء استجابة لحوادث تعرض لها النبي أو المسلمون، مثل حوادث الحروب، أو الأسئلة التي تلقاها النبي، أو علاقة النبي بأتباعه، إلى غير ذلك، وجميع هذه الحوادث ذكرها القرآن، وهذا يعني بشرية وتاريخية الدين لا غير، (فمن خلال مواجهة هذه العناصر الإنسانية والبشرية تولد الدين البشري في أوساط البشر وبين أجواء بشرية...، وبالتالي فإن ما تقوله الآيات إنما هو من جنس الجواب لا من جنس إلقاء الخطاب من طرف واحد... وما أكثر الحوادث التي لم تقع في زمان النبي ولذلك لا نجد لها إجابة معينة في النصوص الدينية ولم يتخذ النبي موقفاً خاصاً منها).

النتيجة التي يريد سروش أن يصل إليها هو ضرورة أن يكون الدين منسجماً مع ظروف الحياة، وليس من الضروري بالطبع أن يكون مؤيداً لها في كل الأحوال، بمعنى أن يكون الدين في خدمة الحياة لا أن يكون الإنسان في خدمة الدين، وهذا الطرح يحتاج إلى أن يكون الدين متجدداً ومستجيباً لحل مشكلات الإنسان والحياة. في هذا المعنى يقول سروش: «في هذا العصر يجب أن يكون التدين تجربة

لحلّ المشكلات وإقناع القلوب وفتح التعقيدات في آفاق الذهنية المسلمة، وكأنّ الوحي يُبعث من جديد، وكأنّ التجربة الدينية خُلقت على أرض الواقع لتأخذ في الاعتبار الأفهام السائدة. ينبغي علينا في هذا العصر عرض الدين كتجربة متحركة في حال تحول وتفاعل وتوالد مستمر، لا من قبيل أيديولوجية مغلقة ومعينة ومحددة سلفاً».

التعددية الدينية:

يستمد سروش من نظريتيه السابقتين نظرية جديدة هي قبول التعددية الدينية، والتي عرضها بشكل تفصيلي في كتابه (الصراطات المستقيمة). يرى سروش أن التعددية الدينية هي النتيجة الحتمية لبشرية التجربة النبوية وبشرية المعرفة الدينية، والتي تقود إلى الاختلاف والتعدد في المذاهب والأديان، وذلك نتيجة لاختلاف ظروفهم وطباعهم وحاجتهم المستمرة لإيجاد إجابات لأسئلة لم تطرح في زمن النبي، أو إيجاد حلول لمشكلات لم تكن موجودة أصلاً. في هذا المعنى يقول سروش: «إن الناس يحتاجون في مواجهتهم للكتب المقدسة وكذلك في مواجهتهم للأمر المتعالي والذات المقدسة إلى تفسير وبيان، وإزالة ستار الإبهام عن المتن الصامت أو التجربة الدينية الخام واستنطاقها، هذا الاكتشاف والاستنطاق لا يكون على شكلٍ واحد بل يتميز بالتنوع والتعدد، وهذا هو السبب في ولادة التعددية الدينية في داخل الدين وخارجه». ويقول متسائلاً: ألا يلزم القبض والبسط في الشريعة وكذلك البسط في الدين والتجربة النبوية (أن تتشكل فروق ومذاهب مختلفة تستوحي كلها من تعاليمه؟ أليس ظهور المذهب الشيعي والسني هو مقتضى وحصيلة ذلك البسط التاريخي؟... أليس من الطبيعي في غياب النبي أن يستمر الأخذ والعطاء والجدل والحوار وإثارة أسئلة جديدة توجب بنفسها التشعب العقدي والسياسي للمسلمين؟).

ومن وجهة نظر سروشية، فإن التعددية الدينية هي نتاج الرغبة الإلهية ونتاج اختلاف تجليات الله، وإن هذه التعددية تنسجم تماماً مع العدل الإلهي، إذ إن سروش يرى أن اختلاف الأديان يحدث «بسبب التجليات المختلفة لله تعالى في عالم الوجود، فكما أنّ عالم التكوين متنوع فكذلك عالم التشريع متنوع أيضاً». ويقول إضافة لذلك: «إن أول من غرس بذور التعددية في العالم هو الله تعالى الذي أرسل رسلاً وأنبياء مختلفين وتجلى لكل واحد منهم بمظهر خاص وبعث كل واحد منهم إلى مجتمع خاص ورسم تفسيراً للحقيقة المطلقة في ذهن كلّ واحد منهم يختلف عن الآخر. وبذلك تمّ تفعيل ظاهرة التعددية).

ويرى سروش، أنه لكي تتحقق التعددية الدينية علينا أن ندرك أن لا أحد يحتكر الحق الكامل أو العدل الكامل أو التوحيد الكامل، فهو يقول: «ليس التشيع هو الإسلام الخالص والحقّ المحض ولا التسنن، ولا المذهب الأشعري يمثل الحقّ المطلق ولا الاعتزالي، ولا الفقه المالكي ولا الفقه الجعفري، ولا تفسير الفخر الرازي ولا تفسير الطباطبائي، لا الزيدية ولا الوهابية، لا عقيدة المسلمين نقية من الشرك ولا عقيدة المسيحيين. إنّ العالم الدنيوي مليء بالهويات الملوثة وغير الخالصة فلا يوجد حق صريح وخالص من جهة، وباطل كثيف وخالص من جهة أخرى، وعندما نُذعن لهذه الحقيقة فستكون الكثرة أقرب إلى الهضم والقبول».

إن غياب مفهوم التعددية الدينية في أي مجتمع يعود في نظر سروش، إلى سيادة الأيديولوجية وانتشار المفسرين الرسميين، الذي يدعي كل واحد منهم احتكاره للحق والحقيقة، وهي عوامل تقود إلى إضعاف الفكر الفلسفي الذي يعتمد العقل لا العاطفة في بحث القضايا والمشكلات، وهو يحمل المسؤولية الكاملة لرجال الدين ومؤسستهم الدينية التي لا تروج لهذا الفكر، بل تعمل في كثير من الأحيان على

محاربته، فهو يقول: «عندما نرى مجتمعاً يتقبّل مقولة التعددية ببطء ولا يتفاعل معها بسرعة فإنّ ذلك بسبب ضعف التيار الفلسفي وخاصة الكلامي بين المسلمين، لأنّ البعض يرى أنّ رواج البحوث الكلامية يؤدي إلى ضعف عقيدة العامّة...، وفي هذا الحال فإنّ المسؤولية الكاملة تقع على عاتق العلماء وأولياء الدين لا العوام والمقلدين، فيجب عليهم فتح باب الصراطات المستقيمة في الدين والسياسة والاعتراف بحقّ السالكين والطالبين في مسيرتهم واستقامتهم..).

من الجدير بالذكر، أن فكرة التعددية الدينية ليست جديدة، إذ يعد (جون هيك John Hick) داعياً وراعياً لها في العصر الحديث، وقد كتب مقالات ومؤلفات عديدة عنها، ولكن ما فعله سروش هو القول بأن التعددية الدينية لا تتعارض مع جميع الأديان ومنها الدين الإسلامي وسعى إلى إثبات هذر الرأي بطريقة منهجية رصينة. ورغم العديد من الدراسات والأبحاث التي تناولت موضوع التعددية الدينية في الدين الإسلامي، إلا أننا نرى أن أفضل من درسها وقدمها هو عبدالكريم سروش.

علمانية الدين:

إن القول ببشرية الدين والتجربة النبوية والمعرفة الدينية والتعددية الدينية، تقود إلى فكرة علمانية الدين أو مقولة (الدين العلماني) وهو عنوان الكتاب الذي طرح فيه عبدالكريم سروش مقولاته عن علاقة الدين بالمجتمع المدني والليبرالية والعلمانية وسلطة القانون ومبدأ المواطنة وغيرها العديد من الأفكار والآراء المعاصرة، ولا يمكن لنا في هذه العجالة من حصر جميع ما طرحه سروش بهذا الخصوص لذلك سوف نكتفي بذكر علاقة الدين بالمجتمع المدني آملين من القارئ الرجوع إلى مؤلفات سروش للتعرف على هذه القضايا بالتفصيل.

في أول مقالة من كتاب (الدين العلماني) والتي تحمل عنوان (الدين والمجتمع المدني) حاول سروش أن يجيب عن السؤال التالي: هل يوجد تعارض بين الدين والمجتمع المدني؟ وبعد بحث دقيق في معنى المجتمع المدني وتاريخ نشوئه وتطوره، يقدم سروش الإجابة التالية: «لا توجد أية مشكلة بين أن يعيش الإنسان في أجواء التدين والالتزام الديني وفي نفس الوقت يعيش الحياة المدنية المرفهة، بل كلا هذين الأمرين يساعد أحدهما الآخر ويكمله»، وهو يعلل هذا التكامل بين الدين والمجتمع المدني بالقول إن الدين يسعى لضبط الإنسان من الداخل بواسطة سلطة الضمير، والمجتمع المدني يسعى لضبط الإنسان من الخارج بواسطة سلطة القانون. ولكنه بعد طرح هذه الإجابة تدارك متسائلاً: «إذن أين يكمن احتمال وجود التعارض بين التدين والتمدّن؟». ويجيب عن هذا التساؤل إجابة واضحة وصريحة وشجاعة بقوله: «التعارض يبدأ عندما يتحرك المتدين لنفي وإلغاء التكثر والتعدد ولا يعترف به رسمياً، ولهذا فنحن بحاجة إلى تفسير جديد وإدراك جديد للدين، . . . فلا يمكن فرض وحدة في الأديان والآراء على الناس لأن هذا المعنى يتقاطع بذاته وحقيقته مع المجتمع المدني ومع الحياة الحقيقية والكريمة للناس، فإذا أراد الدين أن يثير عنصر التعصب ويزيد نيران الاختلافات المذهبية ويفرض وحدة موهومة على الناس فحينئذٍ يقع التعارض بين التدين والمجتمع المدني». إذن فالشرط في قبول المجتمع المدني هو قبول التعدد والاختلاف أولاً وهذا ما يرفضه غالب رجال الدين ومن تبعهم من المتدينين.

كلمة ختامية:

نعتقد أن سروش استطاع أن يضع نظرية متكاملة تقريباً الغرض منها الوصول إلى إسلام جديد ينسجم مع متطلبات الحياة العصرية بكل تعقيداتها. إسلام يستند إلى التجدد الدائم، والتعددية، وعدم احتكار

الحقيقة، واحترام الآخر المخالف، وتفعيل دور العقل، واحترام الإنسان. ولعلها نظرية تستحق الكثير من العناية والتأمل والتفكير من قبل القارئ العزيز، فنحن نشعر بأن ما ذكرناه كان مختصراً جداً لا يليق بالجهد الكبير الذي بذله عبدالكريم سروش.

القمني وعلاقة الدين بالتراث

القمني وتاريخ الديانات:

سيد محمود القمني كاتب مصري من مواليد (1947) حاصل على الدكتوراه في علم الاجتماع الديني. وهو يكتب في مواضيع عديدة غالباً ما تكون مثاراً للجدل بسبب جرأتها وحداثتها. ومن هذه المواضيع موضوع تاريخ الديانات، الذي تناوله القمني في عدد من المؤلفات وبأساليب وطرائق شتى، وكان هدفه من دراسة التاريخ وفقاً لما يقول هو محاولة «قراءة ذلك التاريخ قراءة أخرى، تربط النص بواقع، وتعيد النتائج إلى مقدماتها وأصولها الحقيقية لا الوهمية، من أجل إعادة تشكيل بنية العقل ومنهجه، ومن أجل غد أفضل لأجيالنا المقبلة، ولتراثنا ذاته».

فكرتان جوهريتان:

في مجال تاريخ الديانات قدم القمني آراء خالف فيها الكثير من الكتابات التاريخية المعروفة، لعل أهم هذه الآراء من وجهة نظرنا ما يلي:

1 - إن الديانات جميعها تخضع لقانون التطور والتغير والتبدل، وما نسميه ديناً جديداً هو في الأساس النتيجة الطبيعية لتطور الدين أو الديانات السابقة له. ومفهوم التطور لا يعني أن الديانات السابقة كانت ناقصة وغير كاملة زمن ظهورها، بل يعني أن الدين أصبح بعد مرور الزمن عاجزاً عن مواكبة التغييرات

الحاصلة في جوانب الحياة الأخرى، وبالتالي كان من الضروري أن يظهر دين جديد يتلاءم مع هذه المتغيرات، دين يستمد أفكاره من الماضي وينسجم مع الحاضر. وهذا ما يبرز بشكل واضح في كتابه (الأسطورة والتراث، 1986).

2 - إن أحداث التاريخ الديني جميعها تخضع لقوانين موضوعية ثابتة هي نفسها القوانين التي يخضع لها كل حدث تاريخي، ولا يستثنى من ذلك الدين الإسلامي الذي ظهر نتيجة لتوافر ظروف سياسية واجتماعية وثقافية واقتصادية. وهذا الرأي عَبرَ عنه القمني بشكل واضح وصريح في كتابه (الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية، 1996) والذي يعد من قبل البعض واحداً من أهم المؤلفات العربية المعاصرة على الإطلاق.

يرى سيد القمني أن ظهور الديانات وخمودها يخضعان لهذين القانونين وليس إلى الغيبيات أو المعجزات التي يلجأ إليها رجال الدين، وهذا اللجوء سببه إما العجز عن فهم هذه القوانين أو لإضفاء الهيبة والرهبة والاحترام على أحداث التاريخ. وإن نشاط الإنسان وعمله وتخطيطه، والظروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وغيرها، هي المحرك لأحداث التاريخ وليس الغيبيات أو المعجزات. فالدين الإسلامي مثلاً، من وجهة نظر القمني لم يجئ منفصلاً عن التراث الثقافي السائد في زمن ظهوره، بل هو نتيجة طبيعية لمجمل التفاعلات بين هذا التراث بما فيه من ديانات (يهودية ومسيحية وصابئية ووثنية وغيرها) ومن عادات وتقاليد وأعراف.

القمني ومعارضوه:

لقد تعرض القمني إلى معارضة شديدة من قبل رجال المؤسسة الدينية، منها معارضتهم لأفكاره وآرائه المذكورة أعلاه. وقد كتب

القمني ردوداً عديدة عليها، نذكر منها في ما يتعلق بالموضوع، ما جاء في مقدمة الطبعة الرابعة من كتابه (الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية، 1996) والتي تضمنت نقطتين مهمتين هما:

1 - «إننا لو استخدمنا منهج الدين ذاته بشكل أكثر احتراماً للدين نفسه، ولله صاحب هذا الدين، لأدركنا أن فهمنا للدين سيكون أكثر جمالاً وفهماً عندما يكون الرب متسقاً مع ذاته، لا يخالف قوانين المفترض أنه هو واضعها، وأنه كي يتم المراد من رب العباد وقيام نبي الإسلام بدعوته، فإنه كان لا بد من تمهيد الواقع كي يفرز نتائجه المنطقية التي تتسق مع تلك المقدمات، وتتفق مع كمال ذلك الرب، ذلك الكمال الذي يفترض اتساقه قراراته مع قوانينه وسننه».

2 - إن اتباع هذا المنهج يساهم في تحسين المستوى التربوي للعقل، وبالتالي «نخرج من حالة الركود البليد الذي ينتظر بكل سقم معجزات مفاجئة تعيدنا لعصر الفتوحات». وهذا هو السبب الذي دفع بالقمني إلى المطالبة بتغير المناهج الدراسية المتعلقة بالتاريخ الإسلامي وبالتربية الإسلامية.

أهمية دراسة التراث:

ولأجل ما سبق كله يرى القمني انه علينا أن ندرس التراث الذي سبق الإسلام ولا نكتفي بدراسة الإسلام، لأنه ليس نقطة انطلاق بدأت من الصفر بل هو استمرار لما سبق. ويمكن أن نلخص أهمية دراسة التراث القديم (ديانات قديمة وأساطير) من وجهة نظر القمني بالنقاط التالية:

1 - إن دراسة التراث تمكننا من فهم أسباب السلوك السائد اليوم، وذلك لأن التراث القديم لا يزال حاضراً في معظم جوانب الحياة ولكنه يكون متستراً بصور شتى منها الدين بالطبع، فهو

يقول: إن دراسة التاريخ القديم (هو الطريق الممكن للوصول إلى جذور كثير من الاعتقادات التي توجه فكر وسلوك إنساننا اليوم، وربما تعديل ذلك السلوك).

2 ـ إن دراسة التراث تؤهلنا لمواجهة الأفكار غير المنسجمة مع مقتضايات العصر مواجهة علمية رصينة، مهما كانت هذه الأفكار، دينية أو سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو غيرها، فهو يقول: «إن الدراسة العلمية للتراث القديم، يمكن أن تكون من أمضى الأسلحة في الصراع الفكري الدائر الآن».

الأفكار لها أجنحة:

تلقى سيد محمود القمني عدداً من رسائل وخطابات التهديد كان آخرها الرسالة التي تلقاها من إحدى جماعات التطرف الديني عام (2005) المعروفة بـ(جماعة الجهاد والتوحيد)، مستندين في تهديدهم هذا على مقولة (من بدل دينه فاقتلوه). ونتيجة لهذا التهديد فضل القمني أن يعتزل الكتابة حماية لنفسه وأسرته، وجاء في رسالة اعتزاله «تصورت خطأً في حساباتي للزمن أنه بإمكاني كمصري مسلم أن أكتب ما يصل إليه بحثي، وأن أنشره على الناس، ثم تصورت خطأً مرة أخرى أن هذا البحث والجهد هو الصواب وأني أخدم به ديني ووطني فقمت أطرح ما أصل إليه على الناس متصوراً أني على صواب وعلى حق، فإذا بي على خطأ وباطل، ما ظننت أني سأتهم يوماً في ديني، لأني لم أطرح بديلاً لهذا الدين ولكن لله في خلقه شؤون».

توقف القمني عن الكتابة مرغماً، ولم تعد أفكاره وآراؤه تطل علينا كما كان يفعل سابقاً، ولكن بقيت أفكاره والكلمات، التي لا يمكن سجنها في قفص التكفير والتهديد، والتي من حقها أن تظهر إلى النور، وأن تطير في سماء الفكر الحر، فللأفكار أجنحة.

لقد عاود سيد القمني نشر كتاباته بعد سنتين تقريباً من إعلان اعتزاله، بقدرة وكفاءة وجرأة أكثر مما سبق، ويبدو أن فترة الاعتزال كانت فترة تأمل ودراسة وبحث وتقصي عززت كتاباته وجعلتها أكثر جودةً وإبداعاً.



العشماوي وعلاقة الدين بالسياسة

السيرة والمؤلفات:

هو المستشار محمد سعيد العشماوي، رئيس محكمة الجنايات ومحكمة أمن الدولة العليا بمصر. تخرج من كلية الحقوق عام 1955، ثم عمل بالقضاء في محاكم القاهرة والإسكندرية. عمل بالتدريس محاضراً في أصول الدين والشريعة والقانون في عدة جامعات، منها: الجامعة بالقاهرة، وجامعة توبنغن بألمانيا الغربية، وأوبسالا بالسويد، ومعهد الدراسات الشرقية بلينينغراد بروسيا، والسوربون بفرنسا.

من ابرز مؤلفاته (رسالة الوجود، 1959)، و(حصاد العقل، 1977)، و(أصول الشريعة، 1978)، و(جوهر الإسلام، 1982)، و(الإسلام السياسي، 1988)، و(معالم الإسلام، 1988)، و(العقل في الإسلام، 1998)، و(الإسلام والسياسة، 2004)، وغيرها العديد من الكُتب.

أبرز آرائه في الدين والتدين:

كتب العشماوي في مقدمة كتابه (أصول الشريعة، 1978) عن صعوبة التجديد والتعديل في التراث الإسلامي لما أصابه من تشويه كبير قائلاً: «إن ما هو غريب وعجيب حقاً، أنه ما إن يحدث تَصَدٌ لأيّ نقطة في التراث الإسلامي إلا ويتبين أن المسلمين على مدى التاريخ يفهمونها خطأ ويطبقونها غلطاً، حتى صار هذا التراث معجوناً

بالخطأ ومشحوناً بالغلط، بل وصار الخطأ والغلط هو الأصل الذي استقر بالأفهام إشاعة، واستتب في العقول سماعاً، مما يجعل التصحيح والتنقيح حرباً في أكثر من جهة، لتوخي الصواب ولتقديمه إلى الناس».

الأفكار والآراء التي كتبها العشماوي جعلته يتعرض إلى العديد من الانتقادات من قبل رجال المؤسسة الدينية الرسمية وأتباعهم، فقد اتهم بالعلمانية التي تعد في نظرهم كفراً، واتهم بالتحريف والتزييف والتآمر والافتراء على الإسلام إلى غير ذلك من التهم التقليدية التي تعرض ويتعرض لها جميع دعاة التجديد الإسلامي عادة.

والأفكار والآراء التي جاء بها العشماوي أصعب من أن تحصى، فهي عديدة ومتنوعة، فمنها ما يتعلق بقضايا التفريق بين الدين والفكر الديني، وبين الشريعة والفقه، وبين الدين والشريعة، وبين حكومة الله وحكومة الناس، وجميع هذه التفريقات تهدف لبناء نظرية متكاملة يدعوها العشماوي (نظرية وحدة الدين وتعدد الشرائع)، وسوف نكتفي في ما يلي بذكر ابرز آرائه في الحكومة الإسلامية ومفهوم الخلافة والحاكمية، والتي قوبلت برفض شديد من قبل رجال الدين التقليديين واتبعاهم.

حكومة الله وحكومة الناس:

يميز العشماوي بين حكومة الله وحكومة الناس، وهذا التمييز ضروري لفهم علاقة الدين بالسياسة، ووضع حدود واضحة وصريحة بينهما. ويلخص فكرته عن دور الدين ووظائفه بقوله: «إن الدين يُعنى بالإنسان ويهتم بالمجتمع، لا بالدول أو الإمبراطوريات. وتأسيس الدول وإنشاء الإمبراطوريات ليس من صميم الدين، ولكنه من طبيعة البشر وظروف المجتمعات الدولية. ويوم ترقى الطبيعة البشرية ويسمو المجتمع الإنساني، سوف تتغير النظم السياسية وتتبدل الأشكال

المعروفة، ليصبح المجتمع الدولي كله مجتمع الإنسان، من الإنسان إلى الإنسان).

أولاً: حكومة الله: يرى العشماوي أن حكومة الله أو الحكومة الإلهية لم توجد في الإسلام إلا خلال عهد النبي في المدينة، فلما انتقل إلى الرفيق الأعلى انتهى الوحي وانقطع، وبالتالي انتهت الحكومة الإلهية والتي هي حكومة تقوم على مبدأ حاكمية الله بمعنى: «أن يكون الله هو الحاكم الوحيد للجماعة سواء كان ذلك بطريق مباشر أم بطريق غير مباشر. فحكومة الله تجعل الحكم لله فعلاً، ولا يكون النبي فيها إلا منفذاً لإرادة الله. وبهذا تكون مخالفته أو شق عصا الطاعة عليه عصياناً لله وخروجاً من رحمته). ولقد وضع العشماوي خصائص لهذه الحكومة في عدد من كتبه وهي:

- أن تكون الحاكمية لله فعلاً.
- وأن يكون الحاكم على الأرض منفذاً لإرادة الله، يستمد هذه الإرادة عن طريق الوحي، بالكلمة المحددة أو بالمعنى العام.
- وأن لا ينقطع الوحي عن الحاكم، ولا يقف عند حكم معين، وإنما يستمر في قيادة المجتمع عبر الصوالح العامة وخلال الوقائع المتغيرة والأحداث المتجددة.

وهذه الخصائص التي تميز حكومة الله لم تتوفر لأي حكومة بعد النبي وانقطاع الوحي، لذلك فكل دعوة إلى إقامة حكومة الله بعد النبي بحجة أن الحكم إلا لله هي، في نظر العشماوي، دعوة باطلة لأن أي حكومة جاءت بعد النبي هي حكومة بشرية يدعوها العشماوي حكومة الناس.

ثانياً: حكومة الناس: يعرِّف العشماوي حكومة الناس على أنها: (كل حكومة خلا حكومة الله. وهي حكومة تفرضها الظروف

الاجتماعية والعوامل الاقتصادية، وقد يفرضها واقع القوة. أما نطاقها فيتحدد بقيم المجتمع وحاجاته، ووعي الناس ورغبتهم، وإرادة الرقابة وقدرة التغيير. وهي تتشكل بظروف الواقع وأحواله، فتكون حكومة الصفوة المثقفة (الأرستقراطية) أو المصالح العائلية (الأوليغارشية) أو الإرادة الشعبية (ديموقراطية) أو تستند إلى الدين (ثيوقراطية) أو إلى قوة الحاكم وإرادته (ديكتاتورية). . . وهكذا).

لقد قسم العشماوي في كتابه (حصاد العقل) حكومة الناس في التاريخ الإسلامي القديم والحديث إلى ثلاث حكومات هي: الحكومة الدينية، والحكومة العنصرية، والحكومة المدنية.

1 - **الحكومة الدينية**: وهي حكومة الخلافة الراشدة التي امتدت من (632 - 660م)، وهي حكومة ذات طابع خاص يختلف نسيجه عن نسيج الفهم المعاصر للحكومات والدول، كما أنها تملك مقومات بالغة الدقة شديدة الرفاهية مفرطة الحساسية، فإن اختلّت أو اضطربت أو نقصت لم تعد حكومة دينية، هذه المقومات هي:

- حاكم مختار من المحكومين، بوسيلة من الوسائل - تخطئ ويصيب، فيكون لهؤلاء أن يراقبوه وأن يخرجوا عليه - إن رأوا في حكمه خروجاً عن أحكام الدين والشريعة - بطريقة سلبية تتمثل بعدم الطاعة أو بطريقة إيجابية تتخذ أسلوب التقويم.
- أن تستهدف نشر الدين، وحكم المؤمنين بأحكام الشريعة، بحيث يكون حق تفسير الشريعة مباحاً للكافة، في نطاق الضوابط المستمدة من الدين ذاته، فلا يُكفَّر من يرى غير رأي الحاكم أو يفسّر غير تفسيره، ما دام قد اجتهد في ذلك حقاً.
- أن تكون عالمية الاتجاه إنسانية النزعة، أرضها القلوب وشعبها

الناس جميعاً، تعين المؤمنين على حياتهم وتظل بحمايتها غير المؤمنين، فلا تغتصب أرضاً ولا تميز جنساً ولا تتعصب لقومية ولا تتحيز لجماعة.

2 ـ **الحكومة العنصرية**: هي الحكومة التي امتدت من (660 ـ 1924م) أي من بداية العصر الأموي لغاية انتهاء الخلافة العثمانية (التركية). وهي حكومة لم تملك مقومات الحكومة الدينية بل خالفتها وجاءت بما يناقضها. (وظلت الحكومة العنصرية هي السائدة في البلاد الإسلامية جميعاً حتى انتهت هذه البلاد إلى نظام الحكومات عممته الحضارة الغربية، وهي نظام الحكومة المدنية).

3 ـ **الحكومة المدنية**: هي (حكومة ليست دينية ولا تستند إلى الدين في تثبيت دعائمها والقضاء على خصومها، وهي تقوم على مبدأ المواطنة وسيادة القانون، وأهدافها الأساسية تتلخص في الحفاظ على الأرض، ورعاية مصالح المحكومين مهما اختلفت دياناتهم أو قومياتهم أو لغتهم أو أصولهم. فالدولة على هذا المعنى قامت بديلاً عن الدين في استجماع الناس واستقطاب الولاء، بينما كان الدين هو الذي يشكل بؤرة التجمع الإنساني وتركيز الولاء).

حكومة الإنسان هذه بأصنافها الثلاثة (الدينية والعنصرية والمدنية) لا يحق لها من وجهة نظر العشماوي أن تدعي أنها ممثلة لحاكمية الله، لأنها لا تملك خصائص حكومة الله. ويرى العشماوي أيضاً أن الحكومات التي تدعي أنها حكومات دينية هي ليست كذلك لأن (مجرد الحفاظ على الدين لا يجعل الدولة دينية، فللدولة الدينية مقومات تخلّفت العوامل التاريخية في الوقت الحاضر عن تقديمها).

الإسلام السياسي وحكومة الله:

يحذر العشماوي من الخلط بين حكومة الله وحكومة الناس أو الحكومة الدينية ـ الذي يلجأ إليه رجال الإسلام السياسي عادة ـ لأسباب عديدة ذكرها العشماوي متفرقة في ثنايا كتبه ومقالاته، خلاصتها أن الخلط الشديد بين حكومة الله وحكومة الناس، هو خلط يجعل الناس تحكم باسم الله ـ دون رقيب وبغير قيود ـ فيسيء إلى معنى الألوهية ويزيف كل القيم، ويهدر كل الحقوق. كما أنه خلط بين نظامين مختلفين وتشبيك لنسيجين من خيوط متنافرة يؤدي إلى إيجاد الدولة العنصرية التي تستند إلى الدين وتتمسح به لكي تقيم لجماعة معينة أفضلية على باقي الجماعات أو لتشد قبضتها على المحكومين بالتلويح بدمغ من يخرج عليها بالكفر والإلحاد.

الدين والسياسة:

لعل واحدة من أهم المشاكل التي يعاني منها المسلمون اليوم هي مشكلة تسخير الدين واستغلاله في العمل السياسي. فقد ظهر العديد من الجماعات والأحزاب السياسية التي تصف نفسها بالإسلامية، تدّعي لنفسها القدرة على إقامة حكومة الله، مستغلة شعار (أن الحكم إلا لله) في تحقيق أغراضها للوصول إلى السلطة على الرغم من ادعائها الدائم بأنها لا تسعى لذلك بل تطلب الحق والحقيقة ـ من وجهة نظرها طبعاً ـ وإعلاء كلمة الله وجعلها هي العليا. ولقد لاحظنا في ما سبق أن محمد سعيد العشماوي يرى خطأ مثل هذه الدعوة لأن الحكومة الدينية فقدت جميع مقوماتها التاريخية، ولأنها وسيلة لهيمنة فئة تدعي لنفسها احتكار الحقيقة على بقية الفئات المخالفة لها في الرأي والتوجه. لذلك نجد أن العشماوي وقف وما زال يقف بوجه مثل هذه الدعاوى مع تمسكه الشديد بضرورة الحفاظ

على منجزات الدولة المدنية والارتقاء بها لأنها إلى اليوم لم تتخذ الشكل الحقيقي في المجتمعات الإسلامية، فهي حكومات ما زالت تعاني من وجود خصائص الدولة العنصرية التي سادت في عصور الحكومات الأموية والعباسية والعثمانية.



أبو زيد والخطاب الديني

السيرة والمؤلفات:

ولد نصر حامد أبو زيد في مصر عام (1943). تعلم القراءة والكتابة في (الكُتاب)، وأتم حفظ القرآن وهو في سن الثامنة. التحق بالمدرسة الابتدائية عام (1951). ولم تُعِنْه ظروفه الاجتماعية على مواصلة دراسته الثانوية، لذلك سعى للحصول على دبلوم المدارس الثانوية الصناعية، قسم اللاسلكي، والتحق بالعمل بهيئة المواصلات اللاسلكية عام (1961)، لكن حلم الالتحاق بالجامعة ظل حياً في نفسه، فحصل على الثانوية العامة عام (1968)، والتحق بقسم اللغة العربية بآداب القاهرة وتخرج منها عام (1972) بتقدير ممتاز، وعين معيداً في الجامعة في نفس العام.

ألف نصر حامد أبو زيد عدداً من الكتب منها: (مفهوم النص.. دراسة في عُلوم القرآن، 1990)، و(نقد الخطاب الديني، 1992)، و(النص والسلطة والحقيقة.. إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة، 1995)، و(الخطاب والتأويل، 2000)، وكتب ودراسات متعددة أخرى.

أبو زيد ونقد الخطاب الديني:

في كتابه (نقد الخطاب الديني، 1992) شرح نصر حامد أبو زيد مفهوم الخطاب الديني وبيّن آلياته ومنطلقاته. انطلق أبو زيد في كتابه هذا من تحديد المواقف الثلاثة من ظاهرة المد الديني الإسلامي،

والتي هي: (1) موقف المؤسسة الدينية الرسمية المؤيدة أو المعارضة للسلطة، (2) موقف اليسار الإسلامي، (3) موقف التنويريين أو العلمانيين. والسبب من وجهة نظر أبو زيد، في وجود هذه المواقف الثلاثة هو الاختلاف في قراءة النصوص الدينية، وهو الموضوع الذي ركز عليه أبو زيد في بقية كتبه بشكل تفصيلي ودقيق. ويرى أبو زيد أن الموقف الأول هو موقف مرفوض سواء كان صادراً من المعتدلين أو المتطرفين، أما الموقف الثاني فهو موقف تلفيقي وليس توفيقي كما يدعي أصحابه، أما الموقف الثالث فهو الموقف الذي يسانده وينتمي إليه أبو زيد. وفي ما يلي عرض مختصر لهذه المواقف أو الاتجاهات الثلاثة في الخطاب الإسلامي كما ذكرها أبو زيد في كتابه (نقد الخطاب الديني، 1992) والذي تعرض بسببه إلى المحاكمة وحرمانه من الحصول على لقب الأستاذية في جامعة القاهرة قسم اللغة العربية، وأيضاً اضطراره إلى مغادرة مصر إلى هولندا للتدريس في إحدى جامعاتها العريقة.

خطاب المؤسسة الدينية الرسمية:

إن الخطاب الديني السائد في المجتمعات الإسلامية، خصوصاً العربية منها، هو خطاب المؤسسة الدينية الرسمية، التي قد تكون أحياناً مساندة للحكومات أو معارضة لها في أحيان أخرى، وكلا الخطابين المساند والمعارض متشابهين من وجهة نظر أبو زيد، وذلك لأنهما يتبعان نفس الآليات الخطابية ونفس المنطلقات الفكرية.

أولاً: آليات خطاب المؤسسة الدينية الرسمية: وهي خمس آليات ترتبط وتتداخل مع بعضها بشكل كبير وشائك، ولا يمكن فصل إحداها عن الآخر بأي حال من الأحوال، فهي تشكل منظومة متكاملة من الاحتكار والتطرف والتخلف. وفي ما يلي عرض لهذه الآليات الخمس بشكل مختصر:

1 ـ آلية التوحيد بين الفكر والدين: الدين هو مجموعة النصوص الدينية (القرآن والحديث) والفكر الديني هو طريقة أو أسلوب فهم هذه النصوص (مجموع التفاسير). والتفريق بينهما من وجهة نظر أبو زيد ضروري جداً لأنه لا يسمح بتجميد النص وحصره في فهم واحد لا يقبل الاختلاف. فالدين إلهي أما الفكر الديني فهو بشري، ولا يمكن للبشري أن يحتكر فهم الإلهي لأنه لا يخلو من الخطأ والغلط، وأن عدم التمييز بين الإلهي والبشري يمثل إحدى آليات الخطاب الديني للمؤسسة الدينية الرسمية، والتي تقود إلى إضفاء قداسة على البشري المتمثل اليوم برجال الدين، ولعل هذه القداسة المنسوبة إلى رجال الدين هي التي تفسر، من وجهة نظر أبو زيد، تردد كثير من الكتاب في تخطئة كثير من آراء علماء الدين، بل والتستر أحياناً على هذه الآراء وتبريرها. ومن الجدير بالذكر أن هذا الموضوع شخصه محمد سعيد العشماوي بشكل تفصيلي عند دراسته للفرق بين الدين والفكر الديني.

2 ـ آلية رد الظواهر إلى مبدأ واحد: تتمثل هذه الآلية باختزال جميع القضايا التي يعالجها الخطاب الديني بمفاهيم ضيقة، الغرض منها تحريض المسلمين ضد مواضيع وأفكار يرفضها رجال الدين وليس الدين. فمثلاً تختزل العلمانية بعبارة (فصل الدين عن الدولة)، وتختزل الماركسية بأنها (كفر وإلحاد)، وتختزل الفرويدية بأنها (وحل الجنس)، وتختزل الداروينية بأنها (حيوانية الإنسان)، وتختزل الليبرالية بأنها (التحرر من القيم والأخلاق)، إلى غير ذلك من الاختزالات المغرضة والخبيثة. ولم يكتف رجال الدين باختزال المفاهيم القادمة من خارج الدين بل سعت إلى اختزال الدين نفسه بعبارة (أن الحكم إلا لله) وهذا ما

سوف نناقشه في موضوع (الحاكمية) الذي يمثل أحد منطلقات الخطاب الديني، وكذلك رد كل أزمة من أزمات الواقع في المجتمعات الإسلامية، بل وكل أزمات البشرية، إلى (البُعد عن منهج الله)، وهو من وجهة نظر أبو زيد يمثل في الحقيقة (عجزاً عن التعامل مع الحقائق التاريخية، وإلقائها في دائرة المطلق والغيبي. والنتيجة الحتمية لمثل هذا المنهج تأييد الواقع وتعميق اغتراب الإنسان فيه، والوقوف جنباً إلى جنب مع التخلف ضد كل قوى التقدم)، وهو منهج لا ينسجم مع ما يدعيه رجال الدين من سعيهم للإصلاح والتنمية والتقدم والتطوير.

3 ـ آلية الاعتماد على سلطة التراث والسلف: تهدف هذه الآلية إلى (تحويل أقوال السلف واجتهاداتهم إلى نصوص لا تقبل النقاش، أو إعادة النظر والاجتهاد) بل وجعلها جزءًا من الدين. فضلاً عن ذلك فإن هذه الآلية تعتمد الانتقائية والنفعية في الأخذ من التراث والسلف، بمعنى أنها تأخذ من بعض رجال السلف وتضفي عليهم القداسة وتحجبها عن آخرين وتتهمهم بالانحراف عن الدين الحقيقي. وهذا الاتجاه في الخطاب الديني يشجع على الطائفية والمذهبية والتطرف لأنه يحصر الحق والحقيقة في فئة معينة ويمنعه عن فئات أخرى.

4 ـ آلية اليقين الذهني والحسم الفكري: تستند هذه الآلية إلى مبدأ احتكار الحقيقة الذي يدعيه رجال الدين لأنفسهم، فهم يرون أن الحق دائماً معهم وأن المخالف لهم في ضلالة وجاهلية. (وهكذا، فالخطاب الديني حين يزعم امتلاكه للحقيقة لا يقبل من الخلاف في الرأي إلا ما كان في الجزئيات والتفاصيل، وهنا يبدو تسامحه واتساع صدره واضحاً ومثيراً للإعجاب، يتسع للتشدد والتنطع، بل وللتطرف. ولكن الخلاف إذا تجاوز السطح

إلى الأعماق والجذور احتمى الخطاب الديني بدعوى الحقيقة المطلقة الشاملة التي يمثلها، ولجأ إلى لغة الحسم واليقين والقطع، وهنا يذوب الغشاء الوهمي الذي يتصور البعض أنه يفصل بين الاعتدال والتطرف).

5 ـ آلية إهدار البعد التاريخي: تقوم هذه الآلية على التوحيد بين الماضي والحاضر، بمعنى أنها تعمل على إلغاء أو إهدار البعد الزمني وما يرتبط به من تغير وتبدل للظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية وغير وذلك. وهذه الآلية تقود بالتالي إلى (تصور التطابق بين مشكلات الحاضر وهمومه وبين مشكلات الماضي وهمومه، وافتراض إمكانية صلاحية حلول الماضي للتطبيق على الحاضر)، كما أنها تقود أيضاً إلى عدم فهم حركة الإسلام في مرحلة النشأة وانسجامه مع واقع المجتمع العربي في ذلك العصر، بمعنى إلغاء العلاقة الجدلية بين الإسلام والواقع، وعزل الإسلام عن الواقع والتاريخ.

ثانياً: منطلقات خطاب المؤسسة الدينية الرسمية: ذكر أبو زيد منطلقين أساسيين يستند إليهما الخطاب الديني الرسمي هما: الحاكمية والنص، واللذان يرتبطان بشكل وثيق بالآليات الخمس المذكورة أعلاه، ولا يمكن التمييز بسهوله في ما إذا كان هذان المنطلقان هما المسؤولان عن وجود هذه الآليات أو أن العكس هو الصحيح، وأياً كان الأمر فإن هذين المنطلقين يمثلان مشكلة كبيرة في الفكر والخطاب الديني. ومن وجهة نظر أبو زيد فإن منطلقي الحاكمية والنص يعتمدان على أساسين مهمين: الأول، تحجيم دور العقل ورفض الخلاف والتعددية. والثاني، وضع البشري مقابل الإلهي والمقارنة الدائمة بين المنهج الإلهي والمناهج البشرية.

1 ـ **الحاكمية**: يتحدث الإسلاميون في كل مناسبة عن حاكمية الله

رافعين شعار (أن الحكم إلا لله). وحاكمية الله تحيلنا إلى حاكمية كتابه وهو (القرآن). وحاكمية القرآن تحيلنا إلى حاكمية ثالثة هي حاكمية المفسرين للقرآن، فالقرآن مجموعة سور تتألف من عدد من الآيات، وهذه الآيات يُختلف في تفسيرها وفهمها، ولكن هناك مجموعة من رجال الدين ينسبون لنفسهم الفهم الحقيقي الصادق للقرآن. وهذه هي المشكلة الحقيقية، فمقولة (أن الحكم إلا لله) تعني في حقيقتها (إن الحكم إلا لرجال الدين)، وبالتالي ننتقل من حكومة بشر يمكننا تخطئتهم والاعتراض عليهم أو طردهم من الحكومة إلى حكومة رجال دين ينسبون لأنفسهم القدسية وبالتالي لا يمكن الاحتجاج عليهم أو معارضتهم، وهذا ما عبر عنه أبو زيد بالقول: «إذا كان الخطاب الديني يستهدف بمفهوم الحاكمية القضاء على تحكم البشر واستعبادهم لبعضهم البعض، فإن هذا المفهوم ينتهي على مستوى التطبيق إلى تحكيم بشر من نوع خاص، يزعمون لأنفسهم احتكار حق الفهم والشرح والتفسير والتأويل، وأنهم هم وحدهم الناقلون عن الله. وإذا كانت حاكمية البشر يمكن مقاومتها والنضال ضدها وتغييرها بأساليب النضال الإنسانية المختلفة، واستبدال أنظمة أكثر عدالة بها، فإن النضال ضد حاكمية الفقهاء يوصم بالكفر والإلحاد والزندقة بوصفه تجديفاً وهرطقة ضد حكم الله. ويصبح المفهوم بذلك سلاحاً خطيراً يُفقد البشر أية قدرة على تغيير واقعهم أو تعديله، لأنه ينقل مجال الصراع من معركة بين البشر والبشر إلى معركة بين البشر والله».

2 ـ النص: ينطلق الخطاب الديني الإسلامي أيضاً من مقولة (لا اجتهاد في ما فيه نص)، والمقصود بالنص كل من القرآن والحديث، وهما بطبيعة الحال يخضعان للفهم البشري، وذلك

لأن (النصوص ثابتة في المنطوق متحركة ومتغيرة في المفهوم).
وعند بحثه في مفهوم النص قدم أبو زيد المعنى التالي للنص، حيث قال: «لم يكن القدماء يشيرون إلى القرآن والحديث باسم النصوص، كما نفعل في اللغة المعاصرة، بل كانوا حين يشيرون إلى النص يعنون به جزءاً ضئيلاً من الوحي، أو بعبارة أخرى ما لا يحتمل أدنى قدر من تعدد المعنى والدلالة بحكم بنائه اللغوي. إنه ما يكون مستغنى فيه بالتنزيل عن التفسير، وما لا ينطبق عليه وصف الوضوح الدلالي الذي لا يحتاج معه إلى تفسير فليس نصاً، ولذلك لا بد من الاستنباط والاستدلال في فهم ما ليس بنص في كتاب الله»، ويضيف: «وإذا كان النص هو الدال دلالة قطعية لا مجال فيها لأية درجة من الاحتمالية، فإن النصوص عزيزة نادرة، خاصة في مجال الشريعة).

إن هذا الفهم الذي قدمه أبو زيد للنص يلغي من الجذور مقولة (لا اجتهاد في ما فيه نص)، ويفتح الباب على مصراعيه للعقل ليدخل إلى ساحة الاجتهاد دون وجل أو خوف. وهو يرى أن الخطاب الديني حين يرفع هذه المقولة في وجه العقل والاجتهاد فانه يقوم في الحقيقة بعملية خداع إيديولوجي ماكرة الغرض منها نفي الاجتهاد، وفسح المجال أمام نفي التعدد وتثبيت الواقع طبقاً لما يطرحه هو من آراء واجتهادات.

خطاب اليسار الإسلامي:

ظهر اليسار الإسلامي من وجهة نظر أبو زيد في بداية الثمانينات في مصر، وهذا لا يعني عدم وجود اليسار الإسلامي قبل ذلك التاريخ، ولكنه لم يكن بارزاً كما هو عليه في بداية الثمانينات. واليسار الإسلامي لا يختلف في خطابه عن خطاب المؤسسة الدينية الرسمية لأنه ينطلق من نفس الثوابت المعرفية التي تطرحها النصوص

الدينية، ولكن ما يميز خطاب اليسار الإسلامي عن خطاب المؤسسة الرسمية هو سيطرة بعض آليات الخطاب الفلسفي على بعض اطروحاته. أما من الناحية الفكرية والعملية فإن الخطابين الرسمي واليساري يتفقان في أن التمسك بالتراث هو سبيل الإصلاح المنشود، في هذا يقول أبو زيد: «الخلاف بين اليسار واليمين يبدو خلافاً على المستوى السطحي، أما على مستوى البنية العميقة فيتفق كلاهما في تصور أن الحل ـ حل مشكلات الواقع الراهن ـ يقبع في التراث ـ وإذا كان اليمين يرفع الآن شعار (الإسلام هو الحل) فإن شعار اليسار (تجديد التراث هو الحل)، وعلى ذلك يلتقي اليسار واليمين في جعل الماضي أصلاً والحاضر فرعاً، بل يتجاوز اليسار بساطة الطرح اليميني وسذاجته ليجعل من التراث نقطة البدء والختام، فهو مستودع الحلول بما أنه المسؤول عن الأزمة».

ولهذا السبب فإن أبو زيد لا يرى فرقاً بين خطاب اليسار واليمين الإسلاميين سوى أن خطاب اليسار يدعي التوفيق بين المؤسسة الدينية الرسمية وبين خطاب التنويريين العلمانيين، وأن محاولة التوفيق هذه قادت إلى أن يصبح خطاب اليسار خطاباً تلفيقياً، وأن ما يدعيه اليسار من إعادة البناء هي ليست سوى إعادة طلاء، لذلك يعد مشروع اليسار الإسلامي أكثر ضرراً بمسيرة الإصلاح من خطاب المؤسسة الرسمية.

الخطاب العلماني:

واحدة من أهم التهم التي تعرض لها أبو زيد هي تهمة العلمانية التي توحي لمن يسمعها أنها مرادف للكفر أو الإلحاد، والسبب في هذه التهمة هو ما يراه أبو زيد من أن العلمانيين هم الأقدر على فهم الدين والتعامل معه في مسيرة التنمية والنهضة التي تطمح إليها المجتمعات الإسلامية، وهو يرى أن العلمانية لا تتعارض مع الدين،

وأن ما يقال عنها من أنها كفر وإلحاد هو ليس سوى محاولة خبيثة وماكرة لرجال المؤسسة الدينية الرسمية لحجب دور العلمانيين والتقليل من شأنهم، فهو يقول: «ليست العلمانية في جوهرها سوى التأويل الحقيقي والفهم العلمي للدين وليست ما يروج له المبطلون من أنها الإلحاد الذي يفصل الدين عن المجتمع والحياة»، إذ يميز العلمانيون بين فصل الدين عن السلطة السياسة وبين فصل الدين عن المجتمع. الفصل الأول ممكن وضروري، أما الفصل الثاني فهو وهم وخيال، لذلك يتساءل أبو زيد مستنكراً فكرة فصل الدين عن المجتمع: «من يملك قوة فصل الدين عن المجتمع أو الحياة، وأية قوة تستطيع تنفيذ القرار إذا أمكن له الصدور؟».

يعرف أبو زيد العلمانية على أنها: «مناهضة حق امتلاك الحقيقة المطلقة دفاعاً عن النسبية والتاريخية والتعددية وحق الاختلاف بل وحق الخطأ»، وهو يرى «أن الإسلام هو الدين العلماني بامتياز لأنه لا يعترف بسلطة الكهنوت، ولأنه يمثل بداية تحرير العقل لتأمل العالم والإنسان، أي الطبيعة والمجتمع، واكتشاف قوانينهما». ومن هذا ندرك أن العلمانية من وجهة نظر أبو زيد لا تتعارض مع الدين بل مع رجال الدين، لأنها لا تعتمد في خطابها على الآليات التي يعتمدها رجال المؤسسة الدينية الرسمية التي هي «التوحيد بين الفكر والدين، ورد الظواهر إلى مبدأ واحد، والاعتماد على سلطة التراث والسلف، واليقين الذهني والحسم الفكري، وإهدار البعد التاريخي»، وهي أيضاً لا تستند إلى منطلقاتهم الفكرية والتي هي (الحاكمية والنص). إن العلمانية الدينية التي ينادي بها نصر أبو زيد تقوم على أسس ثلاثة هي: العقل والحرية والعدل الاجتماعي، والتي يمكن اعتبارها مقاصد كلية جديدة للمشروع الإسلامي، والتي بدونها لا يمكن بناء المجتمع المدني، فهو يقول: «إن العلمانية هي الحماية الحقيقية لحرية الدين

والعقيدة والفكر وحرية الإبداع، وهي الحماية الحقة للمجتمع المدني ولا قيام له بدونها».

إن الرأي الذي يتبناه أبو زيد له العديد من المناصرين ولكنهم عادة يتحاشون ذكر كلمة العلمانية بصورة صريحة ويستعيضون عنها بعبارة (المجتمع المدني)، ولكن أبو زيد يصر على استخدام كلمة العلمانية لأنه يراها الكلمة المناسبة والدقيقة ويعتبر التهرب من ذكرها هو نوع من الابتزاز الديني الذي يخضع له العلمانيون خشية اتهامهم بالكفر والإلحاد، فهو يصر على إيصال رسالة العلمانية إلى الإسلاميين وإلى الجمهور الصامت، ويرى أن العلمانية إذا لم تصل إلى الإسلاميين فإنها من المهم «أن تصل إلى الجمهور الصامت الحائر بين الإسلام والعلمانية والمتردد بالصمت، الذي يُفضي صمته إلى استمرار الحال على ما هو عليه).

إن خلاصة الخطاب الديني العلماني تتمثل بإعادة قراءة النصوص الدينية والتراثية قراءة عقلية متأنية مع مراعاة الظروف التاريخية التي صدر فيها النص، وهذا يقود إلى التمييز بين الدين والفكر الديني، وإلغاء قدسية المحتكرين لفهم النص، وتحرير الفتوى والاجتهاد من سلطة النص وتغليب سلطة الواقع والمصلحة.

الخطاب الديني والمستقبل:

إن ما قدمه نصر حامد أبو زيد في مجال الخطاب الإسلامي من تحليل لآلياته ومنطلقاته، يعد عملاً متميزاً ساهم بشكل ما في رسم ملامح الإسلام الجديد الذي يعمل على تشكيله عدد من الباحثين الأكاديميين من خارج المؤسسة الرسمية. ولعله من المناسب القول إن تحديد آليات ومنطلقات أي خطاب ديني أو غير ديني يعد استشرافاً للمستقبل الذي يطمح إلى تحقيقه هذا الخطاب، لذلك فإن دراسة

الخطاب الديني يعطينا صورة عن المستقبل الذي ينتظر المجتمعات الإسلامية في حالة سيادة وسيطرة هذا الخطاب، ومن الواضح عبر تحليلات أبو زيد أن المستقبل المتوقع، في حالة سيادة الخطاب الديني الرسمي أو اليساري، سوف يتسم بالتطرف والتخلف والاحتكار، وهو ما لا ينسجم مع مقتضيات العصر، وبالتالي سوف يتم خروج المسلمين من ساحة الحياة ودخولهم في متحف التاريخ الإسلامي.



الوردي وعلاقة الدين بالمجتمع

علم الاجتماع والدين:

حصل علي الوردي (1913 ـ 1995) على شهادتي الماجستير والدكتوراه في علم الاجتماع من جامعة تكساس الأميركية عام (1950). وقد وظف الوردي العلوم الاجتماعية في دراسة علاقة الدين بالمجتمع، وكيف يؤثر أحدهما في الآخر. ولعل جميع مؤلفات الدكتور الوردي ناقشت هذه العلاقة على نحوٍ ما قد يزيد أو يقل، ولكن أشهر مؤلفاته التي تعرضت لهذه العلاقة بشكل تفصيلي وصريح هما كتابي (وعاظ السلاطين، 1954) و(مهزلة العقل البشري، 1955)، ومن الجدير بالذكر، أن الكاتب الكبير سلامة موسى كتب عن مؤلفات الوردي في كتابه (التثقيف الذاتي) قائلاً: «وأحسن ما ننصح به في دراسة الأدب العربي القديم هو كتابين للدكتور علي الوردي. الأول هو (وعاظ السلاطين). والثاني هو (أسطورة الأدب الرفيع). فإن في هذين الكتابين ما يفتح العقول والعيون معاً على حقائق تواطأ كثيرون على إخفائها. ولا يمكن لذلك فهم الأدب العربي بدونها». وهذه الكلمة من كاتب كبير مثل سلامة موسى لها دلالاتها الواسعة، فهي تنبهنا إلى أن كتابات الدكتور الوردي تتناول ما يمتنع الآخرون عن تناوله والحديث عنه، وهو نفس السبب الذي يدعونا إلى توجيه القارئ إلى مؤلفات الوردي جميعها.

ومن المواضيع العديدة التي تناولها الوردي في مؤلفاته، نود

أن نذكر للقارئ موضوعين هما: مساوئ الوعظ الديني، ومشكلة السلف الصالح.

مساوئ الوعظ الديني:

في كتابه (وعاظ السلاطين) تحدث الوردي عن الدور السلبي للوعظ الديني السائد في المجتمعات الإسلامية والذي يتبناه رجال الدين بشكل رئيس، معتقدين بأنه السبيل الناجع لإصلاح المجتمعات والابتعاد بها عن مهاوي الفسق والفجور والعصيان على حد تعبيرهم. فالوردي يرى أن أسلوب الوعظ المتبع يعمل على خلق الصراع النفسي الذي يؤدي بدوره إلى ازدواج الشخصية، وأن ليس للوعظ ذلك الدور المهم في الإصلاح، فهو يقول: «يكون الوعظ ذا ضرر بليغ في تكوين الشخصية البشرية إذا كان ينشد أهدافاً معاكسة لقيم العرف الاجتماعي». وهو بذلك لا يقف إلى جوار العرف الاجتماعي ويرى فيه الحق، بل يرى أن العقل الواعي يستجيب للوعظ، بينما العقل الباطن لا يفهم من المواعظ والنصائح شيئًا، إذ هو مشغول بما يوحي به العرف الاجتماعي من قيم واعتبارات، وبالتالي يقع بين متناقضين، يقودان إلى خلق شخصية مزدوجة، وهذا ما دفع الوردي إلى القول: «لقد لاحظت، بعد دراسة طويلة، ان العرب مصابون بداء ازدواج الشخصية أكثر من غيرهم من الأمم. ولعل السبب في ذلك ناشئ عن كونهم وقعوا أثناء تطورهم الحضاري تحت تأثير عاملين متناقضين هما: البداوة والإسلام. فهم في بدء أمرهم عاشوا في الصحراء، ثم جاءهم الإسلام بعد ذلك يحمل من التعاليم ما يخالف قيم البداوة القديمة».

والذي يجعل الوعظ غير نافع من وجهة نظر الوردي هو أن الوعاظ لا يراعون ظروف الناس وواقعهم، فيعظونهم بما يقدرون عليه، بل يضربون لهم المثل الأعلى الذي لا يستطيعون الوصول إليه،

وبالتالي يتخلون عنه، فما قيمة المثل الأعلى الذي لا ينفع الناس في حياتهم؟، لأجل هذا نجده يقول: «إن الجدير بالواعظ أن يضع الهدف الخلقي واطئاً في متناول الكثير من الناس، لكي يشجّعهم بذلك على السعي نحوه والتنافس عليه». وهذه من المواضيع المهمة التي ينبغي لرجال الدين أن يلتفتوا إليها، فهم عادة ما يطلبون من الناس أن يتخلوا عن عادات وأعراف وممارسات أصبحت جزءًا من المجتمع. والمثال الواضح في هذا المجال ننقله لكم من الواقع الاجتماعي للعراق. فقد أصدر احد رجال الدين الشيعة كتاباً يحمل عنوان (إحذر في بيتك شيطان) ويقصد بالشيطان جهاز التلفزيون. فهو يطلب من الناس ألا يستخدموا جهاز التلفزيون لأنه مصدر للفجور والفسوق ومعصية الله. لقد نسي رجل الدين الواعظ هذا إن تخلي الناس عن جهاز التلفزيون لم يعد ممكناً وأنه إذا أردت أن تطاع فأمر بما يستطاع، فمن المناسب أن يعمل رجال الدين وغيرهم من المصلحين على تثقيف الناس وإرشادهم إلى الاستخدام الصحيح للتلفزيون، واختيار البرامج المناسبة والنافعة، إلى غير ذلك، أما أن يقولوا للناس تخلوا عن التلفزيون فهذا مما لا يعقل.

والوردي ضد الوعظ سواء كان صادراً من رجال الدين أو من المفكرين والمتعلمين، فهو يرى أن طريقة الوعظ التي يتحدث بها المتعلمون المتأثرون بأفكار الغرب لا تختلف عن الوعظ الذي يقوم به رجال الدين، لأن كلاهما لا يعظ بما يتلاءم وواقع الناس الاجتماعي والنفسي، فهو يقول: «والوعاظ المتفرنجون لا يقلون عن المعممين في ولعهم بالنصائح الفارغة... يفتخر المعممون بأخلاق السلف الصالح، ويفتخر المتفرنجون بأخلاق الغربيين. وهم جميعاً يريدون أن يضعوا أمام الناس غاية لا تنال على سبيل الإلهاء والترويع».

مشكلة السلف الصالح:

ظهر وعاظ يدّعون أنهم يريدون أصلاح المجتمع والناس، وسبيلهم في ذلك هو أن يعود المجتمع والناس إلى الوراء ويفعلوا مثلما فعل السلف الصالح، يقلدونهم في كل شيء، أقوالهم وأفعالهم وحتى أزيائهم ومعيشتهم، وحجتهم في ذلك أن السلف الصالح كان ناجحاً، فإذا أردنا النجاح علينا أن نقتفي أثرهم!! ويرد الدكتور الوردي على هؤلاء الوعاظ والمصلحين بالقول: «إن هذا منطق سخيف طبعاً. فالمسلمون الأولون نجحوا ثم فشلوا. وليس لنا إلا أن ندرس عبرة النجاح والفشل في تاريخهم لكي نتعظ بها».

وإذا كان رجال الدين يرون أن السلف الصالح هم أهل البر والتقوى وأنصار الخير والعدل، وأنهم في نظر البعض معصومون من الخطأ والزلل، فهذا مرفوض في نظر الوردي، فهو يقول: «من يدرس حياة السلف الصالح دراسة موضوعية، يجدهم كسائر الناس يخطئون ويتحاسدون ويطلبون الشهرة... لقد كانوا بشراً مثلنا يأكلون ويمشون في الأسواق، ولكن الواعظين جعلوهم من طراز الملائكة، لكي يحرضوا الناس على اتباع مسلكهم في الحياة).

ويرى الدكتور الوردي أنه إذا أردنا أن ننتفع من التاريخ بما فيه من رجال وأحداث فعلينا أولاً أن نتعامل مع رجاله على أنهم بشر عاديون وغير معصومين وليسوا ملائكة، وذلك حتى يتسنى لنا التعلم منهم والانتفاع بتجاربهم، لأنهم إذا كانوا مختلفين عما نحن عليه من طبيعة بشرية فإن الاقتداء بهم والتعلم منهم يصبح ضرباً من الخيال والمستحيل. وبهذا المعنى يقول: «إن التاريخ ندرسه لكي ننتفع بما فيه من عبر تنير لنا السبيل في زماننا الحاضر. فما دمنا نرى الصحابة لا تجري عليهم نواميس المجتمع البشري، كما تجري على غيرهم من الناس، أصبح تاريخهم في نظرنا هالة من النور تخلب الأنظار. وإذا

جعلناهم قدوة لنا في زماننا هذا صرنا نسعى وراء هدف لا يمكن إدراكه، وأمسينا بذلك نركض وراء السراب».

تفعيل آراء الوردي:

في الأوضاع الراهنة التي تعيشها المجتمعات العربية والإسلامية، نرى من المناسب، بل من الضروري أن تشيع مفاهيم الدكتور الوردي وآراؤه بين الناس، لأنها سوف تساعدهم على تفهم دينهم وتراثهم ورجال دينهم فهماً لا يجعلهم تابعين ومقلدين بل أناساً واعين ومدركين لماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم. ومهمة الترويج لأفكار الوردي ليست مهمة سهلة، فرجال الدين وغيرهم من الوعاظ لا يرضون أن تشيع أفكار الوردي لأنها تتعارض مع مصالحهم وتحط من مكانتهم، وخير دليل على ما نقوله هو صدور خمسة كُتب رداً على كتاب (وعاظ السلاطين) بعد فترة قليلة من كتابته، أكثرها كان من قبل رجال الدين التقليديين.



عقبات في طريق الإسلام الجديد

عقبات في الطريق:

ليس من السهل على الإسلام الجديد أن ينتشر بين الناس في ظل الوضع الراهن والذي يتميز بشكل كبير بغياب التفكير المنهجي والنقدي والإبداعي. فالإسلام الجديد يقوم على مبدأ تحرير العقل واحترام الآخر المخالف، وبالتالي رفض العنف والسعي إلى تحقيق التسامح الإنساني والتعددية الدينية، وهي مبادئ وقيم لا تنسجم مع العقل الأحادي المحتكر للحقيقة التي تسود التفكير والخطاب الديني التقليدي. وهذا الغياب في التفكير المنهجي والنقدي والإبداعي يعود من وجهة نظرنا إلى أسباب عديدة منها، وربما أهمها: ضعف أو تخلف المؤسسة التعليمية الرسمية بمختلف مراحلها، من الدراسة الابتدائية إلى الدراسات العليا (الماجستير والدكتوراه) مقابل هيمنة المؤسسة الدينية التقليدية وتعاظم دور رجالها.

الإنسان المفكر:

تعمل مؤسساتنا التعليمية اليوم من مدارس وجامعات على تخريج متعلمين وليس مفكرين. والفرق بينهما كبير، فالمتعلم يخزن في عقله مجموعة من المعارف فقط، أما المفكر فهو الذي يُحول هذه المعارف إلى مادة خام للإبداع وذلك من خلال نقدها وتميز الصائب من الخاطئ منها، ومن ثم الربط بين الصائب منها لإبداع معارف جديدة.

ولكي يكون الإنسان مفكراً عليه أن يتعلم ثلاثة أساليب من التفكير هي: التفكير المنهجي والتفكير النقدي والتفكير الإبداعي، وبالتالي يتمكن من مواجهة الفكر المنحرف بقوة وثبات. والمشكلة هي أن متعلمينا خلال فترة دراستهم الطويلة التي تصل إلى ستة عشر عاماً يقضونها في المدرسة والجامعة، لا يستطيعون أن يتعلموا هذه الأساليب الثلاثة في التفكير، والسبب يعود إلى أن التعليم الرسمي يتم بطريقة التلقين البغيضة التي تحول الطالب إلى مجرد آلة لحفظ المعلومات وخزنها ثم استرجاعها في يوم الامتحان لغرض النجاح فقط.

إن الإنسان المتعلم الذي لا يملك تفكيراً منهجياً نقدياً مبدعاً هو في حقيقة الأمر فريسة سهلة الوقوع في شباك رجال الدين المتطرفين والمحتكرين. فهو مستعد لتقبل أي فكرة وأي معلومة دون أن يكون قادراً على معرفة ما فيها من صواب أو خطأ، أو ما فيها من نفع أو ضرر. إنه يتعامل مع ما يسمع ويرى بطريقة المتلقي وليس المستوعب الناقد.

هيمنة رجال الدين:

النتيجة المتوقعة لغياب الإنسان المفكر في أي مجتمع هي انتشار التبعية والتقليد الأعمى لكل من يتصدى إلى شؤون الحياة. وبسبب غياب أو تراجع دور المثقفين في المجتمع مع قلة عددهم، برز عدد من رجال الدين الذين سيطروا على الناس وحشوا عقولهم بالفكر الديني المتطرف والمتخلف، وبالتالي خلق أوضاع نفسية واجتماعية وسياسية واقتصادية متأزمة جداً، وكما بينا في المقالات السابقة.

إن الإنسان الذي تعود على قبول كل ما يقال له لا يمكنه أن يقاوم الفكر الأعوج خصوصاً إذا كان صادراً من رجال الدين، فهو قد تربى على مفهوم المقدس الذي يجب طاعته واحترامه وتبجيله، وذلك لأن (المتن الاعتقادي والمبدأ الشرعي ينفذ إلى صميم الشعور ويستقر في

كوامن الفكر، فيشل العقل عن الفهم، وبالتالي يغلّه عن الفحص، فيقع في التسليم الذي غالباً ما لا يتضمن المعتقد نقياً، أو حتى واضحاً، دون لبس وبغير تخليط أو تغليط) حلى حد قول محمد سعيد العشماوي.

إنقاذ المؤسسة التعليمية:

إن إنقاذ المؤسسة التعليمية مما تعاني منه من انتكاسة وتخلف وتراجع هو الخطوة الأهم في إنقاذ الإنسان من هيمنة رجال الدين المتطرفين والمتخلفين والمحتكرين. وهذا الإنقاذ يكون بتحويل المؤسسة التعليمية من مؤسسة تلقينية إلى مؤسسة فكرية. بمعنى أن تنتقل من تلقين المعارف لمتعلميها إلى مؤسسة تدرب متعلميها على أساليب التفكير المنهجي والنقدي والإبداعي. وبذلك فقط يمكن أن نبني إنساناً قادراً على مواجهة التخلف والتطرف والاحتكار.. إنسان قادر على التمييز بين الدين والفكر الديني، وبين الدين ورجال الدين.. إنسان يستطيع أن يعرف المعنى الحقيقي لكلمة الشريعة.. إنسان يميز بين الحكومة الإلهية والحكومة البشرية.. إلى غير ذلك من المفاهيم الدقيقة المرتبطة بالدين والتي من دونها يصبح الدين سلاحاً بيد فئة قليلة تنسب لنفسها احتكار الدين وتستغله للسيطرة على الآخرين.

لقد استطاع رجال الدين المحتكرين والمتطرفين والمتخلفين أن يهيمنوا على المجتمعات الإسلامية عندما تخلف التعليم وتراجع منذ بداية الربع الأخير للقرن العشرين. فالتعليم الذي استطاع أن يربي ويثقف زعماء الأدب والفلسفة والفن والعلم في النصف الأول من القرن العشرين، تراجع وأصبح يربي متعلمين متطرفين وببغاوات يسيرون مع كل تيار ويهبون مع كل ريح، لا يلجمهم عقل ولا تحميهم عاطفة من الوقوع في براثن التطرف والتكفير والجريمة العقائدية.

لعله إذا لم نستطع إنقاذ المدارس والجامعات من هيمنة التعليم

بالتلقين فلن نستطيع أن نتخلص من هيمنة رجال الدين. إن التعليم الذي يخرِّج مفكرين هو السبيل لمكافحة محتكري الحقيقة وزعماء العنف والتطرف. ولعلي لا أغالي إذا قلت إن أي حكومة أو مؤسسة أو جماعة تدعي الإصلاح عليها أن تهتم بالتعليم أولاً، أما بخلاف ذلك فإن كل عمل مهما كان عظيماً سوف لن يحقق المرجو منه. فالحل في نظري هو العناية بالتعليم وجعله في مقدمة اهتماماتنا، والانتقال به من مستوى التلقين إلى مستوى التفكير. وهذا الكلام يؤيده الباحثون والدارسون لشؤون البلدان العربية والإسلامية بكافة اختصاصاتهم سواء التربوية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية، فهو مما أجمع عليه الباحثون تقريباً.

الخاتمة

يدّعي رجال كل دين تقريباً أنهم الأحق بجنة الله وأن الآخرين ليس لهم سوى الجحيم. فاليهودي يعتقد بأن الله اختاره ليكون سيداً على الناس وأن الله أراد أن تكون الجنة من نصيبه وحده. والمسيحي يرى أن الإيمان بالمسيح هو السبيل الوحيد للخلاص، وأن الإنسان مهما فعل من خير فلن يحصل على الغفران والتبرير دون الإيمان بخلاص المسيح. أما المسلم فيرى أن الدين عند الله الإسلام، وأن من لا يؤمن بالإسلام لن يشم ريح الجنة أبداً.

لعل احتكار الجنة هذا هو أحد أبشع صور احتكار الحقيقة الذي يمارسه رجال الدين باسم الدين. إنهم لا يحتكرون الدين والجنة فقط بل يحتكرون محبة الله أيضاً. إن الذين يدّعون أنهم يحتكرون الحقيقة والجنة والحكمة والفضيلة والأخلاق ومحبة الله وجنته هم أول المسؤولين عن إعاقة مسيرة البشرية نحو التكامل الإنساني والوصول إلى السلام العالمي.

إن أدعياء احتكار الحقيقة، سواء كانوا رجال دين أو سياسة أو غير ذلك، لا يعيقون فقط مسيرة الحاضر بل يعيقون أيضاً تصورات الإنسان للعدالة والتكامل التي تسعى إليها البشرية منذ أن وجدت على الأرض. فهم يتصورون أن العدالة لا تأتي بالمحبة والتسامح والاعتراف بالآخر المخالف، بل بالقضاء عليه وإخفائه من عالم الوجود. إنهم لا يتصورون أن يعيش الناس بسلام رغم اختلافهم، لذلك يرسمون صورة عن الكمال والعدل مصدرها أن ينتصر احد الأديان على الأديان الأخرى المخالفة، ولأن هذه المهمة صعبة بل ومستحيلة بشهادة الواقع نفسه، لم يجدوا أمامهم إلا أن يقوم بهذه

المهمة رجل خارق للعادة وفوق مستوى الإنسان العادي أطلقوا عليه (المخلص) الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن مُلئت ظُلماً وجوراً. فاليهودي والمسيحي والمسلم جميعهم يتحدثون عن خروج المخلص الذي يقيم العدل ويقضي على الظلم سواء كان هذا المخلص هو المسيا أو المسيح أو المهدي، وأنهم جميعاً يتصورون أن هذا العدل لا يأتي إلا بعد حروب كارثية تُزهق فيها الكثير من الأرواح وتسيل فيها بحور من الدماء، فأي عدالة هذه التي تبنى على أساس من العنف والقتل والإبادة، وعلى بحور من الدماء وملايين من الأرواح؟!

لا يمكن لنا أن نعيش معاً بسلام ومحبة واحترام إذا كان كل صاحب دين يعتقد بأنه مُحتكر الحق المطلق الذي لا نقص ولا شك فيه، وأن الآخر المخالف له في الدين والعقيدة والإيمان لا يملك سوى الضلال المطلق الذي لا خير ولا حق فيه. إن فكرة احتكار دين ما للحقيقة دون بقية الأديان فكرة لا تجلب للبشرية سوى الخراب والدمار، وهذا لا يتنافى أبداً مع فكرة امتلاك الحقيقة التي يبنى عليها الإيمان، فالاحتكار غير الامتلاك، فإن الاعتقاد بامتلاك الحقيقة لا يمنع من الاعتقاد بأن الآخر يمتلكها أيضاً، أما الاحتكار فلا يسمح بذلك، وهذه هي المشكلة.

باختصار، لقد كان غرضنا من هذا الكتاب هو أن نقول إن احتكار الحقيقة هو اعتقاد باطل وضار ولا يجلب للبشرية إلا الخراب والدمار، وانه اعتقاد ينتشر لدى غالب الناس تقريباً، سواء كانوا رجال دين أو سياسة أو غير ذلك، ولكن أكثرهم تأثيراً وضرراً وخطراً في رأينا، خصوصاً في الوقت الراهن، هم رجال الدين وأتباعهم، لأنهم يقصدون باحتكار الحقيقة احتكار الله وجنته ورحمته وغفرانه ومحبته. لقد أردنا، ببساطة شديدة، أن نقول لرجال الدين إنكم لا تحتكرون الحقيقة، لا انتم ولا أي شخص آخر على هذه الأرض.

واثق غازي 6/ 12/ 2007



(إن موضوع الكتاب باختصار هو فكرة احتكار الدين للحقيقة، وهي الفكرة التي يروج لها عدد من رجال الدين وعدد من أتباعهم من المتدينين، فضلاً عن عدد من رجالات الدين السياسي سواء كانوا يهود أو مسيحيين أو مسلمين أو غير ذلك. والنقد الموجه لفكرة احتكار الدين للحقيقة عمل صعب لأنه يتصل بتصورات الناس الموروثة عن الدين والتي يصعب تغييرها وتبديلها، لأنها مما رسخ في النفوس وتعودت عليه الشعوب. والرسالة التي يحملها هذا الكتاب هي أنه لا يوجد دين يحتكر الحقيقة، ولا يوجد دين أدعى أو يدعي احتكار الحقيقة، ولكن بالتأكيد يوجد رجال دين يفعلون ذلك.

والمشكلة الكبيرة في فكرة احتكار الدين للحقيقة هي أنها تقود إلى عدد آخر من الاحتكارات منها أحتكار الأخلاق والفضيلة والحكمة. ونعتقد أن هذه الاحتكارات تقود إلى عدد من المشكلات النفسية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتي تعيق بالنهاية النمو السليم للإنسان والمجتمع.

إن كل ما ورد في هذا الكتاب هو مجرد أفكار وآراء يرى كاتبها أنها صائبة أنها صائبة، والتي من الممكن أن يرى الآخرون أنها خاطئة وربما مجافية للحق أو العدل، وربما يذهب البعض إلى أبعد من ذلك فيصفها بانها كافرة أو ملحدة معاذ الله. لذلك يجد الكاتب أنه من الواجب القول أنها مجرد أفكار وآراء يعتقد أنها صائبة وأنها قد تساهم في تحسين أوضاع الإنسان وترقية معيشته، وأن من حق الجميع أن يروا فيها خلاف ذلك، لأن الكاتب لا يدعي لنفسه أحتكار الحقيقة).

ISBN 978-9953-529-13-4

9 789953 529134